
شامان

غانم بوحمّود



اسم الكتاب: شامان (رواية)

المؤلف: غانم بوحمود.

الطبعة الأولى: 2017.

عدد النسخ: 1000.

الترقيم الدولي: ISBN 978-9933-22-120-1

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في :

دار مؤسسة رسلان للطباعة و النشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق – جرمانا – الآس الشرقي

هاتف: 00963115627060

هاتف: 00963115637060

فاكس: 00963115632860

ص .ب : جرمانا 259

www.darrislan.com

الإهداء

إلى من عشقتها أحد عشر قمراً،

وأحببتها ما عشت من شموس. !

غانم

هناك من قال:

"الرجل الذي تحبّه زوجته، هو الرجل الذي تبكي عليه عند موته"

شكراً لصديقي الراحل (نيكولاس كازانتاكوس) ولزوجته (كاترينا)

لولا إعجابهما بهذه الرواية ما كانت لترى النور!

الورقة الصفراء

لماذا نحتفي باللون الأصفر أكثر من احتفائنا باللون لأبيض؟ هل ينبغي أن تشكر لصاً، كان قد سرق أثاث منزلك، تاركاً الكتب والمخطوطات؟ أم ينبغي أن تعتب على لص، كان قد سرق الكتب والمخطوطات، تاركاً أثاث منزلك؟! أيّتها الأنثى التي صلّيت طويلاً في محراب حكمتها، وسأصلّي ما قُدِّرَ لشمعة عمري أن تُضيء، أدعوكِ إلى مائدة الذكرى، فلربّما نفعل شيئاً من أجل النسيان.

"إيه أيتها الدنيا ، لقد قطفت وردَتك،

وضممتها إلى قلبي، فوخزتني شوكتُها"

(طاغور)

سودارشان

لما تجاوز عقده الخامس بحولين، صفّى تجارته، أقلع عن أسفاره، زاهداً بما قد يكسبه في تالي السنين، شاكراً خالقه على ما آلت إليه حاله من ثراء، وما سمعه في أسفاره من قصص ونوادر، وحفظه من حكم ومواعظ وأمثال، وما رأته عيناه من عجائب الخلق، منبهراً بما وصلت إليه بلاد فارس والعراق والشام واليونان من حضارة عمرانيّة، وازدهار في شتّى ميادين العلم والفن، بعد أن زار الكثير من حواضرها، ورأى المدهش من قصورها وقلاعها ومعابدها، ملتقياً بالنُّخب من رجال العلم والأدب والفلسفة والدين، وأرباب الصناعة والتجارة.

كان مثله "الشباب عهد تحصيل الحكمة، أمّا الكهولة فعصر ممارستها"

كلّ ذلك لم يروِ ظمأ الرجل للاستزادة من المعارف والعلوم، فقد اعتاد عند كلّ إياب على اقتطاع جزء من أرباحه، يخصّصه لشراء كتب ومخطوطات عربيّة ويونانيّة وفارسيّة، وأخرى مصادرها متنوّعة، شكّلت لديه مكتبة في غاية التنوّع والثراء، رتّب محتوياتها بفنّ وذوق، وفهرسها

بمساعدة شاب مختصّ لبيب، لتكون منهلاً ثرّاً لطلاّب العلوم والآداب والفلسفة.

لاحظ الرجل السخيّ، الشغوف، العارف، عدمَ ارتياحٍ لدى المحيطين به من أهله وبعض من ذويه، أولئك الذين لم يخفوا تذمّرهم الشديد من اهتمامه الكبير باقتناء الكتب والمخطوطات، حتّى وإن أغدق عليهم نادرَ ونفيس هداياه. لِمَ لا!؟ وقد كانوا يتشوّقون لمجالسته، ومسامرته، وسماع أخبار رحلاته قبل أن يحضّر نفسه لسفر جديد، فهو بخلاف الكثيرين من التجار مؤمن بمقولة:

"العلم يحرس المال" لذلك.. غالباً، ما كان يسأل نفسه متحسّراً:

"ما مصير ثروتي المعرفيّة بعدي؟"

ذات صباح خريفيّ مشمس، غادر الرجل منزله مصطحباً من كتبه ما خفّ حمله، وعظُمت فائدته، قاصداً غابة بعيدة وراء النهر، غير آسف على شيء أكثر من أسفه على ثروة معرفيّة، اضطرّ لتركها بين أيدي من لا يحتفون بها، ولا يقدّرون لها قيمة، فلم يمض سوى أيّام قليلة على رحيله حتّى سُرق منزله، وعبث اللصوص بمحتويات مكتبته.. ليلة، كان أفراد أسرته مدعوّين إلى عرس لقريبٍ لهم في قرية مجاورة، أحزن دوريّة الشرطة مشهد كتب ومخطوطات، وجدت مبعثرة في أرجاء حجرة المكتبة، في الوقت الذي أدهشتهم رسالة مكتوبة بلغة غريبة، أعطاها الضابط بعد العودة من مهمّته لخبير نمساويّ، كان يرأس بعثة دوليّة، تنقّب عن الآثار في قلعة تتريّة قديمة.

شكر الباحثُ الضابط الهندي لاهتمامه بالرسالة، والتفاتته الواعية إليه، وسرّ كثيراً بترجمته السريعة لمقاطع قليلة من سطورها، أرجأ البوح بها لحين عودته من مدينة (حيدر أباد) إلى (فيينا) متوسّطاً لدى حكومة الولاية، لإعادة المكتبة إلى سابق عهدها، وتعيين قيّم عليها، يهتمّ بمحتوياتها، ويواظب على خدمة روّادها، كما ظلَّ الباحث وفيّاً لها، يزوّدها بما كان يصله من كتب حديثة وقديمة، حتّى آخر أيّام بعثته، حيث عاد إلى (فيينا) مصطحباً الكثير من المخطوطات القيّمة، والهدايا النفيسة، بالإضافة للرسالة الصفراء، التي اعتبرها الرجل أنفس من كلّ ما وصلت إليه يداه من تحفٍ وكتبٍ ونقود.

هناك، انكبّ على دراسة نصّ الرسالة خبراء مكتبات، وعلماء لغات حديثة وقديمة، انتهوا مؤخراً إلى فكّ القليل من رموزها، أمّا الكثير الباقي، والذي استعصت عليهم ترجمته، فلم يزل منتظراً من يعمل بإخلاص لفكّ رموزه، وتحليل طلاسمه.

انتشر خبر الرسالة المكتشفة في سائر البلدان أيّما انتشار، مِنَ الناس من صدّق بما انطوت عليه من حِكم وأسرار، ومنهم من شكّك بها، أو كذّبها.

طبعاً، سرعة انتشار خبر الرسالة، حدثٌ عظيم الأهميّة، جعل للقرية حسّاداً من الأقارب أكثر من الأباعد، متسائلين:

"لماذا يحدث ذلك في قرية سدرين بالذات ، ولا يحدث في قرية أخرى من قرى جبل شان؟ "

"لماذا كهف سدرين بالذات ، وليس سواه!"

تتناثر على سفوح الجبل قرى صغيرة وكبيرة، تغار الواحدة من أختها، وتحسدها أخريات. جبل له من الشهرة ما يجعله جديراً بالزيارة من مشرقه إلى مغربه، ومن شماله إلى جنوبه.

كلّ الشائعات المغرضة، والدعايات المضّادة، لم تحدّ من تدفّق الناس إلى قرية (سدرين) الواقعة في أقصى شمال قمم الجبل، ذاك الّذي ظلّ شاكراً ممتنّاً لأيّام لا تشبه إلاّ نفسها، قانعاً بما يزوره من طير، وبشر، وغيوم، ورياح، ومطر، وثلوج، وصقيع، وشمس، وضباب، وضياء، فما ضعف أمام المحن، ولم يحنِ رأسه لطامع، أو يخضع لظالم.

اختلف الأمر على أهل القرية، مشاهد ما ألفوها ، ولغات ما سمعوها ، يأتي القادم بحكاية، ويرجع منها بحكايات، ولم يزل هناك من يأتي سواء من حسّادها، أو من أصدقائها، وتبقى أبواب بيوتها مشرّعة للقادمين من كلّ حدب وصوب. لكن، من سمعَ ولم يرَ، ليس كمن سمع بأذنيه، ورأى بعينيه، ما دفع بحسّادها إلى بثّ شائعة مفادها:

من يأتِ إلى (سدرين) يُشفَ من أمراضه، يخلص من معاناته، هذا إذا قُدّر للمرء أن يعود من حيث جاء!"

عيد الينابيع

وصلت إلى (سدرين) مجموعة من زوّار ينتمون إلى جنسيّات مختلفة، رجال ونساء قدموا من بلاد بعيدة وقريبة، بعد أن بلغت مسامعهم أخبار الرسالة المكتشفة، موقنين بما يمكن أن يقدّمه كهفها العجيب لهم من استشفاء. لحسن الطالع، تزامن وصول مجموعة من الزوّار مع موعد احتفال القرية بـ(عيد الينابيع) – موروث مقدّس – لا يعرف دواخله سوى قلّة من حكمائهم الحاضرين في كلّ زمان ومكان، فما إنّ يتوفّ الله منهم حكيماً حتّى تنصرف أنظار الخاصّة والعامّة، ورغباتهم إلى حكيم آخر، من خلال طقس محلّيّ، يمارسونه بوقار واقتدار.. متتبّعين فراشات ملوّنة، تنطلق من أشجار منتشرة في أرجاء مقبرة سدرين، قاصدةً دار خلفٍ للراحل، أبداً .. لا تضلّ الطريق إليها.. هناك، تقوم بعرض راقص مدهش، ومن ثمّ تعلو مغادرةً سماء القرية.

طقس أهلي، يحدث للتوّ بعد الانتهاء من مراسم التشييع والدفن، ليتمّ ببساطة تتويج حكيم القرية الجديد دون اللجوء إلى سلطات محليّة، أو توجيه دعوات للجوار.

يؤكّد حكماؤها أنّ استمرار الأمن والخير والازدهار في القرية مرهون بالمحافظة على ذلك الطقس، وإلاّ لماذا تكاد تجفّ ينابيع كثيرة في قرى الجبل وبلداته، بينما تبقى ينابيع قرية سدرين قادرة على ريّ حقولها وبساتينها إلى أن يستقبل جبل(شان) أمطار سنة جديدة.

مهما كان الأمر، فإنّ ما حصلَ، وسيحصل من جديد، لا يستطيع أحد إنكاره، وما يُرى بأمّ العين، يظلّ الأقرب إلى تصديق ممّا لا يُرى، لماذا يُفسد الناس إيمانهم بالشكوك، ويُشغلون تفكيرهم بالأسئلة العصيّة، مادامت ثمرات المقاصد بيّنة، حاضرة، واضحة المعالم، لا غطاء يحجب وجهها، ولا مساحيق.

أمّا العرفان بفضل الماء في حياتهم، فليس سوى عادة متأصّلة لدى أهل سدرين، فهم يحتفلون في ربيع كلّ سنة جديدة عند ينابيعهم العذبة، وعلى ضفتيّ نهرهم الكريم، طبعاً.. بعد قيامهم بتنظيف ما يحيط بها من ساحات، وما يؤدّي إليها، ويخرج منها من دروب.

مواطنون كرماء، يتبارون في تقدّيم أشهى أطعمتهم، وحلواهم، ومشروباتهم للمحتفلين والضيوف، وقد ارتدوا أزياءهم الشعبيّة الملوّنة، واجتمعوا حلقات صغيرة وكبيرة، يرقصون بحماس، ويغنّون بشجن، لكنّهم أبداً لا يستخدمون في عزفهم سوى آلات قصبيّة، ووتريّة، وهم يقدّمون ألحانهم الفولكلوريّة، التي لا تشبه إلاّ نفسها، يكاد المرء يطير غبطة وألقاً لسماع أغانٍ مفعمة بأنغام أصيلة، تتماهى برقّةٍ وعذوبة مع هديل الحمائم، وتغريد البلابل، وشدو العصافير.

يقول حكيمهم الجديد:

"لا تكمن سعادتكم في بناء القصور، بل في عمارة العقول، الأرض أمّكم الأولى، كونوا رحماء بالأنثى، اتّحدوا، ولا تقطعوا حبال المودّة بينكم، اطلبوا من أنفسكم أكثر ممّا تطلبون من الآخرين، السماء لكم

مشاع، ما دامت جذور أشجاركم ممتدّة في أعماق الأرض، تمنح نوافذ للأمل، وشرفات للمحبّة!"

كان للخطبة القصيرة وقع خاص في النفوس، صاغ الشاعر منها نشيداً، ما لبث أن قفز فوق الأنهار والحقول والأشجار، متجاوزاً كلّ الكهوف، مانحاً القوّة والسلام.

يتميّز حكماء سدرين بخطبهم الجريئة، ينتقون كلماتها أحسن انتقاء، هم راسخون كالجبال وراء منابرهم، فلا يتحرّك لواحدهم ذراع، ولا يرفّ له جفن، عيونهم ملتصقة بعيون من يحدّثونهم، يصمتون كي يتعلّموا، ويتحدّثون كي يعلّموا، لا يلتفتون إلى ميمنة، ولا إلى ميسرة، أنوار الصباح في وجوههم، لا تتزعزع لهم وقفة، ولا تدبّ في مفاصلهم رجفة، لسانهم طليق، لكنّ سرهم عميق، يخوضون في مجالات شتّى ، فيتحدّثون عن التواضع ، والإحسان ، والسعادة، والحسد ، والإحساس، والحقّ، والحبّ، والحقيقة، وأحوال الدنيا، والصحّة، والشرف، والصمت، والعدل، والظلم، والصدق، والكذب، والعلم، والجهل، والعظمة، والعظماء، والفقر، والفقراء، والفن، والعبقريّة، والرذيلة، والفضيلة، والصدق، والكذب، والبخل، والكرم، والموت، والحياة، والوقت، واللسان، والعلم، والحكمة، ولا يهملون التحدّث عن علاقة الأبناء بالآباء، وشؤون الطبيعة والحيوان.

كما لو أنّهم عرفوا افلاطون، وكونفوشيوس، ولاروش فوكو، ودخلوا مدارس أرسطو، وسقراط، وهوميروس.. وذهبوا إلى اورفيوس، ويوليوس

قيصر، وأنوشروان، واستمعوا إلى شيشرون، وابن خلدون.

لم يقصد جبلهم الأشمّ رسل ولا أنبياء، ولم يترك لهم العابرون كتب مقدّسة، ولا أسفار، في الوقت الذي كان يضجّ العالم بالمكائد والفتن، ويسبح خلقه البسطاء في برك من دماء.

فعلها الهرّ إذاً!

ألقى سلّته الأنيقة بجواره، اقتلع حجراً من مداميك الحائط الغربي لحقل الكرمة ، وجلس عليه، تماماً، مقابل الساحة القديمة، تلك التي تتوسّط أحياء سدرين، فهي من بين الرموز المقدّسة عند أهلها، تحظى باهتمام صغيرهم وكبيرهم، لا يراها المرء إلاّ نظيفة، تتأرجح في أجوائها ذكريات السهارى، ورائحة مواعيدهم، وصدى حكاياتهم.

دُهش البائع من تزاحم الناس على سماع موعظة الحكيم، التي جاءت بعد ساعات طويلة شُغِلت بمرح، ورقص، وغناء، ودعاء.. أكثر ما أدهشه قصر كلمة الحكيم، وحسن بيانه، وقد بدا هادئاً، رزيناً، واثقاً بنفسه، مؤمناً بمقولته.

قال البائع في داخله:

"ما كنت أسمعه من خطابات في قرى كثيرة، كنت قد زرتها، لم يكن سوى مبالغات لمحترفيّ منابر، تلهب حناجر الجماهير بالهتاف، وأكفّهم بالتصفيق، لا أكذب إذا قلت إنّ الضجيج يُرهق أذنيّ، ويُطبق على صدري، حتّى حينما أعود لاستذكار ما كنت قد سمعته.. تخونني ذاكرتي، واعجبي! ما أسمعه الآن من كلام، وما أراه من مشاهد، يختلف تماماً، عمّا كان يتندّر به أبناء جلدتي، ويمارسونه في مثل هكذا مناسبات"

استراح قليلاً قرب شجرة عالية وارفة الظلال، تحيط بها أوراق وأعواد بنيّة وصفراء، تعرّش على أغصانها دالية مثقلة بعناقيد عنب، بدت لناظريه

بلون بشرة عامل إفريقي، حمل له السلّة على رصيف الميناء، كما أنعشه نسيم غربي قادم من الشاطئ القريب، تأمّل عناقيد متدلّية كالثريّات، منبهراً بشدّة لمعانها، ودقّة تراصف حبّاتها.

كان يوماً حارّاً ، شديد الرطوبة، شعر بعطش وجوع شديدين، حتّى إذا شرع في النهوض متابعاً تجواله المعتاد، جاءه صوت مطاردة سريعة من أعلى الشجرة، تماماً، قبل أن يرفع السلّة عن الأرض، وينطلق بها إلى أقرب بيت في القرية، ليسكت جوعه، أو إلى منهل قريب.. ليروي ظمأه.

رفع رأسه بحذر شديد، واستدار مستطلعاً مصدر الصوت، رصده تماماً بين الأغصان المتشابكة، مندهشاً.. يتابع مطاردة هرٍ بريّ ملوّن لثعبان أسود كبير، ترك سلّته في مكانها، مبتعداً من تحت الشجرة مخافة سقوط واحد من العدوّين، أو كليهما في سلّته، أو فوق رأسه.

طويلاً، استمرّ بينهما العراك والمطاردة، فلم يبرح مكانه حتّى تناهى إلى سمعه صوت لارتطام قويّ، تقدّم خطوات تلات، من ثمّ تراجع خطوة واحدة، مندهشاً ممّا حدث، رمى السلّة بنظرة متفحّصة، وهي تهتزّ بقوّة، كما لو أنّ شخصاً مجهولاً، أمسك بها بعنف، وأمالها ميمنة وميسرة.

قال في نفسه:

"فعلها الهرّ، وانتصر أخيراً على الثعبان، وما السكون الموحش الذي أعقب الحدث، وران في المكان، سوى مؤشّر على أن أحدهما يلتهم صيده بأعصاب هادئة، ما عليّ إلاّ أن أعود إلى سلّتي، أرفعها من

مكانها، ثمّ أذهب في حال سبيلي.. قبل أن تغرّب شمس الجبل، يا لخسارتي! مضى على سعيي أكثر من نصف النهار، قدماي تورّمتا، انهدّ حيلي، ولم أرتزق سوى بدراهم قليلة، فهل كنت مع نفسي، حتّى يحصل لي ما حصل!

لستُ نادماً على ما فات!

تشجّعَ البائع المندهش قليلاً، استدار، بخطوات شبه ثابتة.. مشى نحو سلّته، بيد أنّ يداً قويّة امتدت إليه، هزّت به هزّاً عنيفاً، مُحكمةً قبضتها على وسطه، مفاجأة هائلة، كما لو أنّ الأرض انشقّت مخرجةً ما أخرجت، فما استطاع إخفاء ما تركه هول وقوعها على تعابير وجهه، ولا الحيلولة من التعرّض إلى ما أوقعه حدوثها على مفاصله من رجفان، كاد يسقط أرضاً قبل أن تسأله امرأة، ما رأى وجهها من قبل:

"هل تعرف الحساب؟"

بعد أن أيقن أنّ من شدّه إليه، وهزّه بقوّة في المكان، لم يكن عفريتاً جاءَ ملتفّاً من وراء الجبل، ولا غولاً طلع من الأعماق، أعاد توازنه مع جسده المضطرب، وأجاب:

"شكراً لك، ما دمتِ تسأليني عن الحساب، ولا تسألِيني عن القراءة والكتابة، وما أحفظه من شعر وحكم، وأغنّيه من أغانٍ"

رفعت ذراعها من وسط الرجل، وقد لمست منه ضعفاً بيّناً، واشتمّت من جسده رائحة خوف، فاستدارت لمرّات تلات.. وأردفت:

"أفهم من إجابتك أنّك لا تقرأ ولا تكتب، لكنَّك تجيد الحساب!"

"تدهشينني بسؤالك يا امرأة، ما غايتك، وما الذي دعاك لمعاكستي؟"

أجابته بصرامة:

"دعك الآن من هذا، واخبرني أكثر عنك، قبل أن يأتي من يفسد علينا

حوارنا، هو في طريقه إليّ، يصطحب صوتها في حقيبته"
" ما دامت رغبتك.. فإنّ الفضل في ذلك يعود إلى أمّي، علّمتني مذ كنت طفلاً، كيف أحسب على أصابعي، ومن ثم كانت تطلب منّي جمع مملكة من نجوم، أتقاسمها مع أقراني.. وغالباً ما كنّا نطرح ونضرب أعداداً بأعداد، هذا في الليل، أمّا في النهار فكان لحصيّات المسيل فضل كبير في تعلّمنا الحساب، أمّا القراءة والكتابة – صمت البائع برهة –
"كيفَ حدثَ ذلكَ؟!" سألت المرأة.
"ذات مرّة ، حدث أن ضربني معلّمي ضربات مبرحة، حتى أغمي عليّ، حزن والديّ حزناً شديداً، وغضبا، حين رأياني عرضة لكوابيس مخيفة لازمتني طويلاً، على إثرها هزل جسمي، ضعفت إرادتي، لم أمسك بعد ذلك قلماً ولا ورقة، لولا تشجيع والديّ ورعايتهما لي، لما رأيتِني أحمل اليوم سلّتي متنقّلاً بين المزارع والقرى، صاعداً جبلاً، نازلاً وادٍ –كنت ذكيّاً – هذا ما تحدّثوا به عنّي، ورواه السامعون لي"
"الذكيّ في الحساب، ذكيّ في كلّ شيء!" قالت المرأة.
"ربّما!" واستطرد: "كنتُ جباناً! كان ينبغي أن أكون أكثر عزيمة وجرأة، لأقفز إلى المقدمة، وأتسلّق القمّة متفوّقاً على أقراني، لا متخلّفاً عن ركبهم، هذا ما راودني منذ سنوات خلت، اليوم، بعد أن اعتدت الترحال – بالأحرى – أدمنته.. اختلف الأمر عليّ كثيراً"
"يعني أنّك لست نادماً على مغانم كانت في انتظارك؟"
"اليوم، لست نادماً على ما فات.. كثيرون من أقراني عرفوا القراءة

والكتابة، وحصلوا على شهادات عالية في مختلف العلوم، لم يجدوا في بلادنا ما يحقّق طموحاتهم، فركبوا البحار، اليوم لا يُعرف شيء من أخبارهم، ما يبهج أمّي أنّني ما زلت حيّاً، أمّا ما يحزن أبي، فهو أنّني لم أنجح في تحقيق شيء من أحلامه.. غالباً ما يحدث أنّنا لا نعترف بأخطائنا، وإذا اعترفنا بالقليل منها، يكون ذلك في أوقات متأخّرة، تماماً.. حين لا يجدي الاعتراف نفعاً، وليس أولياء أمورنا إلاّ النسخة الأصلية، يخطئون ولا يعترفون، حتّى لو أدّت أخطاؤهم المبجّلة إلى فوضى وخراب ووجع وقتل وغثيان"

"أنتم الباعة الجوّالون تتمادون في ثرثرةٍ لا تؤدّي إلى توافق أو اتفاق، ولا تجلب مغنماً لسواكم، أما رأيت، وسمعت حديث حكيمنا وهو يلقي موعظته، لقد أوجز، فأصاب الهدف، ثمّ ألا ترى أنّك ذهبت بعيداً، وأنا لم أسألك بعد سوى سؤال واحد؟"

"كنتُ صادقاً، للتوّ أجبتك، طبعاً أعرف الحساب، ما مرادكِ، وهل لديكِ استفسار آخر.. كي أوضّحه لك؟"

"أرى لديك ميلاً للتجربة لا التسليم، وهذا ما يخدم مشروعنا المستقبلي، فأنا أحبّ أصحاب التجارب الطويلة، ورجال الإحصاء"

"لن أبخل بالتلبية، قولي ما هو مشروعك؟ "

"أن تتفقّد سلّتك"

نظر البائع في عيني المرأة الصارمتين، وإلى صدرها البارز المنتفخ، وذراعها التي راحت ترتفع فوق كتفها اليمنى، لم ينبس ببنت شفة، ثمّ ما لبث أن

أشاح بوجهه عنها، مذعناً بامتعاض إلى أمرها.
اقترب الاثنان من السلّة، كان حذراً في مشيته، بينما كانت يد السيّدة تدفع به من الوراء، ليتقدّم دون خفر أو خوف.
"إنّها ليست أشيائي!" صاح بأعلى صوته.
"ليس بين ظهرانينا من لصوص، تفحّص سلّتك جيّداً، قبل أن تتّهم أهل قريتي الطيبين، فتخسر ثقتهم بما في سلّتك من سلع، وبما ستحملها إليهم في تالي الأيام"
ابتعد البائع خطوتين، بينما كانت السيّدة تتقدّمه، جرّبت – هي الأخرى – رَفْعَ السلّة، باءت محاولتها بالفشل، فقد كانت السلّة ثابتة في مكانها ، كما لو كانت مغروسة في التراب، لعلّ الأمر استحال عليها، أو أنّها تعمّدت ألاّ تبذل الجهد الكافي لرفعها ، لأمرٍ أسرّته في نفسها.
مندهشاً، نظر البائع إلى المرأة، مرجّحاً أنّه أصاب فيما اعتقد. لاحظت المرأة ما بدا على وجهه من تعابير الشكّ والريبة، قالت متهكّمة:
"لا تفرح كثيراً، ولا تحزن! ظنّك ليس في محلّه، السلّة سلّتك، والأشياء أشياؤك، لكنّه نصيبك، وقد أصبح ملكاً لك، لا أرجو منك سوى إحصاء ما بحوزتك من حبّات العنب"
ما أصعب أن يذعن لرغبتها! لكنّه مولع بالنساء، كلّ النساء.. النساء فاكهة كلّ الفصول، وفوح الزهور.. ما أجملها من أنثى، ألا ليته اختبار الحبيب، وحصاد إعجاب يفضي إلى وصال قريب.. أفكار شتّى راودته، قرّر المضي معها في ما يشبه اللعبة حتّى النهاية، مصمّماً ألاّ ينهزم.

السلّة سلّتي ، والأشياء أشيائي

بشجاعة وبأس، أمسك البائع بمقبض سلّته، محاولاً زحزحتها ميمنة وميسرة، جرّب رفعها عن الأرض، فشلت محاولاته، هي الحقيقة واضحة، ليست بحاجة إلى برهان. أمعن النظر في محتواها، كانت حبّات العنب السوداء تغطي بضاعته، فلا يظهر للعيان شيء منها.

غرق في لجّة من تساؤلات، لم يعد همّه إحصاء حبّات العنب، تراءى له وجه أبيه، كيف يعود إليه خائباً ؟ وقد خسر ما كان بحوزته من بضاعة، كان الأب الطيّب قد ابتاعها بثمن معزاتين وشاة حلوب، ثمّ كيف يحفظ لأمّه ماء وجهها، هي التي أقنعت الأب بفكرتها، معوّلة على إرادته، واثقة بنجاحه في التجارة أكثر من نجاحه في مهنة أخرى.

لما شعر بثقل سلّته، مدركاً صعوبة رفعها، أسرّ في نفسه أمراً، ومن جديد استجمع قواه ليرفعها بكلتا يديه، لكنّ المشيئة لم تلبي رجاءه.. استعجلته المرأة بضربة مفاجئة على كتفه، لشدّتها.. كادت تلقيه أرضاً.

قالت:" طلبت منك إحصاء حبّات العنب، لا رفع السلّة من مكانها، أيّ حماقة ترتكبها يا رجل- نحن البشر - ما إن نشرع بالكلام حتّى نكون قد قطعنا شوطاً كبيراً في تفحّص الأشياء، كلّما أمعنا النظر طويلاً في عناصرها، وأحصيناها جيّداٍ، انزاحت الغشاوة عن أعيننا، أيّها البائع جلّ ما أخشاه أن تكون ممّن يبتهجون لما يحدث أمام أعينهم من سحر وشعوذة، ويتمتّعون بما التقطه غيرهم من صور لأشياء تجلب لهم سعادة

كاذبة، وما هذه الأفعال والمظاهر سوى نتائج ما توصّل إليه الآخرون بعد سعي ولأي، يكتفون به، ويكفّون عن سواه! "

متذمّراً رفع يديه عن السلّة، نظر بعينين حمراوين إلى امرأة ثائرة، تصبّ جام غضبها عليه.

"السلّة سلّتي، والأشياء أشيائي، من أعطاك حق منعي من رفعها، أنظري! جنحت الشمس إلى الغروب، ولم أبع من بضاعتي سوى القليل، دعيني أبلغ مرامي، أسألك بقدسيّة نهركم هذا! اعفيني من إحصاء حبّات العنب، أنا متعب، وجائع، وظمآن"

"أنتَ لا تقدّر مسؤوليتي، ولا تهتمّ لنتائج ما تفكّر في فعله"

"تدهشينني يا سيّدة، ما أردت لنساء وأطفال (سدرين) سوى الخير!"

"كان قولك صحيحاً، قبل أن تضع سلّتك تحت الشجرة، أمّا بعد أن وضعتها في مكان أتولّى حراسته، فقد غدا الأمر مختلفاً"

"ما سرّ ذلك، لم أقطف حبّة عنب واحدة، لم أقم بفعل مشين من شأنه أن يعطيك مبرّراً كي تمنعيني من السعي وراء رزقي، هل تكون ضريبة وضع سلّتي تحت هذه الشجرة مرتفعة إلى حدٍ يجعلك تحبسينها؟"

"لا يفعل مواطنو (سدرين) هكذا بضيوفهم، دع سلّتك مكانها، أرافقك إلى مضافة الحي، هناك.. سيحتفى بقدومك أيّما احتفاء، وستجد من يقدّم لك سلّة شبيهة، وأشياء ثمينة، تفوق في قيمتها ما في سلّتك من بضاعة"

"ما أسمعه منك يجعلني في حيرة من أمري، لكن.. لديّ رغبة بترك

البضاعة حيث تشائين، واسترداد سلّتي، التي لا أستطيع التخلّي عنها، إن رجعت من دونها إلى أبي، يحزن كثيراً، ولن يسامحني أبداً"

أجابته المرأة آسفة:

"لا أشكّ في مصداقية حديثك، لو حملت بضاعتك بسلّة أخرى، لقلت لك خذ سلّتك مع بضاعتك، وامضِ.. لكنّها النهاية الحتميّة، ناهيك عمّا وصل إلينا"

"وما الذي وصل إليكم؟"

"أذكر قولاً جاء على لسان واحد من حكمائنا:

"ما من شيء سُرق من جبلنا، إلاّ وعاد إليه – خرزات سلّتك – هذه – من خرز جبل شان.. وهي اليوم عائدة إليه"

في سبيل الإسكافي

دُهش البائع من جديّة المرأة في سرد حكايتها، لكنّه شكّك في منشأ خرزات سلّته، هو على يقين من أنّ لخرزات سلّته قصّة طريفة تروى في المجالس، ما حفظه من أحداثها، أنّ أباه كان قد استضاف إسكافيّاً ذات يوم، أحسن إليه أعظم الإحسان، واحترمه غاية الاحترام، لكنّ مشيئة القدر غلبت مشيئة البشر، لما فارق الإسكافي الحياة في منزل الأب الضرير، الذي حزن عليه أشدّ الحزن، زاد في شدّته موتُ الإسكافي غريباً، بعيداً عن أهله ووطنه.

تحرّى القوم أشياء الإسكافي، فلم يجدوا وثيقة تثبت جنسيّته، ولا عنواناً يشير إلى موطنه، ومكان إقامته، عبثاً.. تحرّى وجهاء القبيلة عنه، فلم يُعرف له أهلٌ، ولا قربى، ولا وطن.

تكفّل الضرير مع بعض أقاربه بمراسم تشييع الإسكافي إلى مثواه الأخير، وبمفرده تحمّل ما ترتّب عليها من نفقات، لكنّه احتار في أمر سلّة من خرز ملوّن، كان يحملها لبعض شؤون صنعته، خرج من حيرته، واضعاً حدّاً لتردّده، حين سلّم أمر التصرف بالسلّة لحكيم القوم، الذي قضى أن تُفرط حبّاتها، ليعيد الأب الضرير شغلها من جديد، فإذا نجح في إعادتها إلى حالتها الأولى، تكون السلّة من نصيبه.

طمع القوم بالسلّة النادرة، لكنّ حكيمهم قدّر للضرير جميله مع الإسكافي حين كان بضيافته، ولِما بذله من نفقات تشييع وعزاء، فوجد

أنّه الأحقّ من سواه بامتلاك السلّة، بيد أنّ القوم ارتأوا خضوع الأمر لامتحان أصحاب المهارات، ليكون للفائز منهم الحق بامتلاكها، بحيث يقوم بدوره بتعويض الضرير عمّا أنفقه في سبيل الإسكافي.

أدهش الضرير قومه بمهارته، وصبره، وثقته الكبيرة بنفسه حين فاز في الامتحان، فغدا موضع احترامهم وتقديرهم، الأمر الذي جعل من عمله المتقن مثاراً لكثير من التساؤلات، إذ شكّك البعض في أن يداً بشريّة، هي من أعادت جميع الخرزات إلى مكانها من دون تغيير في شكل السلّة.

حتّى ترفع عليه يدك

لجأ البائع إلى السماء، ليس أمامه سوى الصبر والتعقّل، فاستدار شمالاً، طالباً من المرأة السماح له بالابتعاد قليلاً من تحت الشجرة، ليخلو بنفسه، فلا يكون بينه وبين ما يعتقد به من حجاب.

كان ظلّ الشجرة مسيطراً على المكان، وكانت أوراقها كثيفة لا تسمح له برؤية ما بعدها، هكذا.. غدا متوحّداً مع ذاته، متفرّغاً لنفسه، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

قالت له المرأة "لا تُضع وقتك! لو كنت في باطن الأرض لسَمِعَت السماء دعاءك، لكنّها غالباً ما تمتنع عن التلبية، لماذا نتعب أنفسنا في مطاردة سراب وأوهام.. قلّ لي بالله عليك ما عدّد حبّات العنب في سلّتك، أقُلْ لك أيّهما التهم الآخر!"

احمرّت عينا البائع، بدا الغضب واضحاً على تعابير وجهه، قال للمرأة التي راحت تحاصره بالأسئلة:

"جئتُ سدرين بائعاً، لأعود غانماً، لا أجد بي حاجة لمعرفة من منهما التهم الآخر، سيّان بالنسبة لي التهم الثعبان الهرّ، أم التهم الهرّ الثعبان، ليس لديّ وقت لفلسفة الأقوال، والغوص في ترجمة الأفعال.. عادتي، ألا أنظر بعيداً في تجوالي، يربكني ذلك، ويزيد من احتمال تعثّري في الطريق، وانحرافي عنها، ها قد انتهيت إلى حكمة:

"الحذر، ثمّ الحذر! كلّ من تهتمّ بأمره ينصب لك الشراك، وكلّ من تهمُّ

لأجله يُشركُ بأفعالك. سمعتهم يقولون - تبقى قويّاً في عينيّ الحيوان المفترس حتّى تضمر عليه الهزء في صدرك"

قالت المرأة:

"أفهم من حديثك أنّك تاجر ذكي، رحم الله أبي لا زلتُ أذكر قوله في التاجر"

"وماذا قال أبوك؟"

"في صدر كلّ تاجر أكثر من قلب، وإلاّ لما جمع ثروة"

"أفهم ممّا تعنينه أنّ ما يغري التاجر ليس سوى ما في جيوب الزبائن من دراهم، وما في أيديهم وأعناقهم من جواهر وحلي، أليس؟!"

" لو لم يغرك ذلك لما احترفت التجارة"

"أهتمّ بسلّتي أيضاً، فهي جائزة صبر أبي، كما أنّها صديقتي الصدوقة، وبيت لأسراري"

"للأسف! لم تعد ملكاً لك، هي ملك لهذا الجبل، وإلاّ لكنتَ تمكّنت من رفعها بمفردك"

"ها.. ها.. إنّ ما أتمتّع به من شباب وقوّة، يمكّناني من رفعها لو شئت"

"لن يمكّنك شبابك ولا قوّتك من رفع السلّة من جديد، ما دمت تجهل كيف تشكّلت حبّاتها، وأين!" "لكنّني ابن الرجل الذي أعاد تشكيلها"

"صحيح، أنّك ابن السيّد الضرير، الذي أعاد تشكيلها، لكنّك لست ابن روح حكمته، نحن نرث لون العينين، وصفات أخرى كثيرة، لكنّنا أبداً لا نرِث الحكمة"

"هل سبقَ لك أن سمعت قصّة عن صبر أبي وحكمته!"

"دعنا من ذلك! أنت لم تنظر إلى ما وراء يديه، ولم تتقصّ ما خلف كلامه، لو فعلت، علمتَ عن حبّاتها أسراراً، لو بحت بها الآن، لأثقلتُ على سمعك، اسمع! هناك شاب يتجوّلُ في أرجاء جبل شان باحثاً عن كهف سدرين، إن تفده في شيء، يفدك – هو الآخر– في أشياء"

" لم أكتشف ما وراء الجبل، ولم أعرف سوى شامان ذاك الفتى الهائم على وجهه!" "ها أنت تعرفه جيّداً، يعني أنّ وعيك بدأ بالتشكّل، متزامناً مع تشكُّل وعيه، كلاكما يبحث عن الآخر، أنتما بحاجة إلى الاحتفاء والتماهي بطريقة لا تشبه إلاّ نفسها، أمّا ما يعرفه أهل سدرين عنكما، فهو أنّ سلّتك محشوّة بما ملأها بائع الجملة، أمّا عقل شامان فهو محشو بما لقّنته أمّه ومعلّمه من حكايات وأساطير!"

دهش البائع من حديث المرأة، التي قدّمت له كيساً ثقيلاً، قائلةً:

"في هذا الكيس عدد من الخرزات مساوٍ لعدد خرزات سلّتك، وهي للمصادفة العجيبة مساوية لعدد الكهوف المنتشرة في أرجاء جبل (شان) اذهب بها، وارم كلّ كهف تصادفه بخرزة، في النهاية تقفل عائداً، لتجد سلّتك وهي في حال يرضيك! – الآن، لا تسألني ايضاحاً!؟"

"وبضاعتي؟!" سأل البائع.

ألم أقل لك لا تطلب منّي توضيحاً! إنك أضعف من أن تحتمل ثقل أقوالي ومعانيها، حقّاً، إنّك واحد لا همّ لديه سوى الربح، والنجاة بماله، وما حاجتك إلى تافه أشيائك بعد المدهش القادم؟!"

أقول لكم

استيقظ نشيطاً بعد نوم طويل، خرج يتنزّه في دروب القرية، يتعرّف إلى معالمها، يلقي السلام على من يصادفه من أهلها، لم يسأله أحد من أين جاء، ولا عن سبب مجيئه، فليس من عادة أهل (سدرين) سؤال زائريهم من أين قدمتم، ولا متى تغادرون؟

"سدرين" قرية مفتوحة الحدود، ترحّب دائماً بضيوفها، أهلها لا يعاملون الناس بمثل ما يعاملونهم من سوء، واثقون تماماً بأنفسهم، وبحقيقة أن لا أحد يستطيع تعكير صفو محبّتهم، فلماذا رفع الأسوار، ونصب الشراك، ليس ذلك سوى بزخ، أو هدر لا ضرورة لهما، ولا مسوّغ لفعلهما – الناس أخوة – وممّا يؤمنون به أنّ كثرة ورود الضيوف إلى قريتهم، تجعلهم يتلذّذون بما يأكلون، يهنئون بما يشربون، فما نقر طير حبّة قمح، أو سواها في حقولهم، أو عن بيادرهم، ولا سرح قطيع في أراضٍ لهم، إلا وشعروا بسلام ورضا. هكذا تمرّ أيامهم رتيبة، قانعين برزق يحصلون عليه بكدّ، وإرادة، ومثابرة.. الأمر الذي جعلهم سعداء متحابّين، كما لو كانوا أسرة واحدة، لا تملّ من السعي والعمل والفرح.. عادات ورثها الخلف عن السلف، فكلّ من استضاف الشاب (شامان) أو سواه من الزائرين، يقول له بودٍّ وكياسة: "حللت أهلاً، ووطئت سهلاً "

أدهشت حفاوتهم الشابَ الشغوف بالاكتشاف، فغدا أكثر تصميماً وعزماً على زيارة الكهف، ذاك الذي جاء من أجله، بادر إلى عرض

خدماته على كلّ ذي حاجة منهم، ليكون وفيّاً لهم، ولأمّه التي لم تزل وصاياها ترنّ في مسمعه: "زيارة الأمصار، اكتشاف الحيوات، تأمّل الخلق، ركوب المخاطر، يزيل الكآبة والهموم، يكسب المرء الشجاعة، ويؤتيه الحكمة"

قبل أن تسمع الأم ما تناقلته الألسن عن كهف سدرين، كانت مصمّمة على إرسال وحيدها إلى الشمال، فقد أوصاها زوجها قبل موته بزيارة رجل التقاه في آخر حجّة له إلى النهر، فاتّخذه صديقاً، باح كل منهما بسرّه للآخر، وبثّه لواعج نفسه، كما لو كان أخاً يفرّج كربته، يفرح لفرحه، ويسانده عند المحنة والضيق، يومئذٍ.. كانا سعيدين، مطمئنين، متمتّعين بصحة وأمان، وهما يؤدّيان شعائر الحج ومناسكه.

هي عادات الأسرة الكبيرة، التفاخر بعدد الأولاد والأحفاد والصيد والفروسيّة، لكنّ والد شامان لم يرزق إلاّ بغلام، على الرغم من تأكيد العجائز من النسوة أنّ ليس لدى الزوجين ما يمنعهما مطلقاً من الإنجاب، أو يمنعه إلى حين، فاستخدما وصفات الطبّ الشعبي، وأنفقا في سبيل ذلك جلَّ ما اكتنزاه من ثمن ماشية، وألبان، وأجبان، وأصواف.. و موفور ما جاءهما من هبّات ومساعدات خلال أكثر من عشر سنوات، حتّى أصبح أمرهما حديث أهل الإقليم، لِما كانا يتمتعان به من لطف وكرم ومروءة، إلى أن جاء يوم نفذ صبر الرجل، فباح لوجيه الأسرة بما أسرّه في داخله: "فعلتُ كلّ ما طلبتم منّي فعله، حتّى لا يقال خرج الرجل عن إجماعنا، ها أنا أتخطّى الستين من عمري، وامرأتي ناهز

عمرها الخمسين، وقد غدا حصول المعجزة أشبه بالمستحيل، كما أصبح من المفترض أن تصدّقوا ما أقوله لكم. طبعاً لو حدّثتكم قبل هذا الوقت، بأنّ عدم إنجاب مولود آخر، كان بسببي لما صدقتموني، لذلك أحمد خالقي على أنّني بقيت حيّاً، حتّى أبرئ ساحة زوجتي الوفيّة من التهمة.

أقول لكم: ذات يوم، كنت قد طلبت من الخالق الكريم أن يرزقني غلاماً صالحاً، وقد استجاب لدعائي، فلم أطلب ذكوراً آخرين، ولا إناثاً، هذا ما جعلني زاهداً بكثرة الذريّة، ومقتنعاً بوحيدي، شاكراً، حامداً"

انفرجت أسارير أمّ شامان، وهي تصيخ السمع إلى مصارحة الزوج أبناء جلدته، فقد أبرأ ساحتها، ومنذ الآن.. أصبح بمقدورها السير مرفوعة الرأس بين النساء، بينما كانت من قبل مسكونة بالحزن والأسى، بسبب تغامزهنّ وتهامسهنّ عليها في كلّ مناسبة، وعند كلّ لقاء.

صحيح أنّ أبا شامان أعاد إلى أم شامان شيئاً من اعتبارها، ومنحها معنويّات عالية، تواجه بها كلّ غامزة شامتة، ونمّامة حاقدة، لكنّ البوح الذي حصل إبّان ذلك اللقاء، كان من المفترض أن يحصل أمامها، قبل أن يحصل أمام أحد، فلماذا تأخر الزوج في بوحه إلى هذا الحين، وهي المعنيّة ألأولى بالأمر، والأكثر قرباً، والتصاقاً به من أيّ كائن آخر، حتّى من ابنها شامان قرّة عينها، ثمّ لماذا لم يدافع عنها من قبل، كما ينبغي أن يدافع الرجال المحبّون الغيورون عن نسائهم، لكنّ أمّ شامان اعتادت المسامحة، إيماناً منها بأنّ الغفران أعظم سجيّة يتحلّى بها المرء.

طقوس..

لم تكتمل فرحة أمّ شامان بما حصل في تلك الليلة، فقد تدهورت حالة الزوج الصحيّة بعد أيّام قليلة من حديثه الأخير، تاركاً شامان – وحيده – شاكياً، باكياً، أسيراً للضعف والتردّد، ما أقلق الأمّ التي كانت تريد من وحيدها أن يكون ذا إرادة قوية وعزيمة، لا أن يكون فرداً، وحيداً في أسرة كبيرة جلّ أبنائها من الصيّادين المهرة، والمحاربين الأقوياء.

صحيح أنّ الأبوين كانا يتشاجران، وهذا ما يحصل عادة بين الأزواج حرصاً منهم على مستقبل الأبناء، الأب يريده معلّماً، والأم تريده وجيهاً، وعلى الرغبتين اشتدّ الاختلاف.

كان الأب زاهداً بالمال والمتاع والألقاب، الأمر الذي جعله يرسل الغلام إلى معلّم وقور فاضل في بلدة مجاورة، يتتلمذ على يديه، ويتعلّم التأمّل، وينشأ قريباً من داخله، في الوقت الذي كان فيه غلمان الأسرة الكبيرة يخرجون إلى الصيد، يتريّضون، ويتعلّمون فنون القتال أيضاً.. متنقّلين في شعاب الإقليم وفلواته، وقد امتطوا صهوات جيادهم مدجّجين بأسلحة تلقي الذعر في الأوصال.

لم ينتبه أبو شامان إلى خطورة ما أعرض عنه، إلاّ بعد أن التقى رفيقه، ذاك الذي أثار انتباهه إلى أمور هامّة، لم تكن يوماً في حسبانه، حين قال له ناصحاً:

"ما تحدّثني به من طيبة وتأدّب ومسكنة، لا يكفي زاداً للمرء في قادم

أيامه، القوة تحمل الصفات النبيلة، وتزكّيها أيضاً لو رافقها وعي، وظللتها حكمة، ألا ترى أنّ جميع ما تعرفهم من وجهاء، وأعرفهم أيضاً، ليسوا سوى رجال أقوياء.. لكن، بما امتلكوه من إرادة وعزيمة وصبر وإيمان، وقد أكرمك خالقنا من فضله بغلام صالح.. أن يغدو قويّاً، أمره متوقّف عليك، لا شكّ في أنّ اليوم الذي ستلوم فيه نفسك قادم، فمن غير المستبعد أن يجيء يوم آخر، يسألك فيه الغلام:

"أبي.! لماذا لم تعلّمني الفروسيّة، كما فعل أعمامي مع أولادهم؟"

لن تكون إجابتك مقنعة للغلام الهزيل، وهو يجد نفسه ضعيفاً بين أقرانه، والمرء أخبر بنفسه من سواه.. ببساطة، ستجيب الغلام:

"علّمتك ما لم يتعلّمه أبناء عمومتك" ليكُن في علمك يا حاج! أنّ الأشجار بحاجة إلى الضوء أكثر ما هي بحاجة إلى الماء والتراب، قلّب ناظريك بين هؤلاء الحجيج، أليس منهم الضعيف، وفيهم القوي، ومن بينهم المريض والصحيح، ألا ترى أنّ القويّ منهم يؤدي شعائر الحج، وهو أكثر ثباتاً، واطمئناناً، وسعادة، انظر إلى الحشود، هناك في البعيد، ألاّ ترى من حُملوا على الأكتاف.. كأنّي بهم قائلين:

ليتنا أصحّاء أقوياء، بسهولة.. نغتسل بماء النهر، وبحيويّة.. نمشي على ضفتيه المقدّستين، كمثل الملايين من الحجيج!

إنّك تقسو يا حاج على وحيدك، تظلمه حين لا تمكّنه من أسباب القوّة، واستطرد الرجل محدّثاً، بنفس الوقت مراقباً اختلاجات وجه صديقه.

"جمعتنا المصادفة، وسنفترق غداً، قد لا يرى أحدنا الآخر بعد اليوم، ما اعتدت يوماً أن أكون إلاّ كريماً بما أملك من خير، وبما يفيد من علم، هاك نصيحتي:

إنّ حكمة تخرج من فم شيخ قوي مسموعة، أكثر من حكمة ينطق بها شيخ ضعيف، حذار الاستمرار في مخططك هذا، سيجد غلامك نفسه غريباً بين غلمان أسرته الكبيرة، عندئذ سيعتب عليك – هي الطبيعة – هو في طريقه إلى القمّة، وأنت في طريقك إلى الوادي، صعود القمم يحتاج إلى ساقين قويتين، ونَفس عميق، وعزيمة لا تخور. تذكّر أيّها الحاج: كما تؤخذ الحكمة من مقاصد السطور، تستخلص من مسالك الجذور، ودحرجة الصخور، الأرض لا تحترم الضعفاء حتّى لو تفيّأوا ظلال أشجارها، أمّ شامان على حقٍّ يا حاج، سلّمها مجذاف السفينة، يكاد دورك ينتهي في خضمّ هكذا بحر مائج، لا تستهن يا صديقي بآراء النسوة، لا تستغنِ عن مشورتهنّ! منهنّ من يتفوّقن على الرجال في ركوب الأهوال، والوصول بالسفن إلى برّ الأمان، ليس كريماً من لا يعطي المرأة حقّها من الرعاية والاحترام، ويوفّر لها أسباب القوّة، فلا مجتمعاً عظيماً من دون أمّ عظيمة"

بكى الحاجّان عند الوداع، فقد أديّا مراسم الحج سويّة، وتحدثا في أمور خاصة، يكاد المرء لا يخوض فيها إلاّ مع أخيه.

صيد ثمين

تبدّلت طباع الأب بعد مرضه المفاجئ، قلّ كلامه كثيراً، لزم فراشه، طال نومه، سحابة رمادية اللون لا تفارق عينيه، كآبة مستمرّة ترشح من تقاطيع وجهه، مشاهد مؤثّرة بدت جليّة لعينيّ الأم، ولعيون الآخرين.

قالت له ذات مساء:

"تخفي عنّي شيئاً يا حاج، أنا زوجك، وأمّ ابنك الوحيد!" أجابها على الفور:

"لديَّ.. لم يودِع أحدٌ أسراره"

بدت الحاجّة متحسّرة قلقة، نظرت بهلع إلى عينيّ زوجها المتعبتين، ووجهه الشاحب قائلة:

"لكنّك، والحقّ يقال، تغيّرت كثيراً بعد عودتك من الحجّ، ها أنت ذا تفرحنا، تطيل المكوث معنا، ولا تكثر من زياراتك كما اعتدت إلى بني عمومتك، فلا تريد من شامان أن يغادرك لحظة، آخٍ! لو كنت تعلم أنّ هذا هو أكثر ما كنّا نرجوه منك."

شامان لم يغيّر شيئاً من عادات اكتسب جلّها من ملازمته الطويلة لمعلّمه، ولم يفاتح أباه أو أمّه بمعاناته مع أحفاد أبناء عمومة أبيه.

كان مدركاً تماماً، أنّ أباه نشأ وحيداً بين أبناء عمومة كُثر، ما يعني أنّ افتعال أيّ شجار في الأسرة الكبيرة، لن يكون في صالح عائلته الصغيرة.

القدر.. لم يمهل الأب ليرى أيام ابنه المشرقة، فاستعجل القبض على

روحه بعد معاناة قصيرة مع المرض.

فراق أنهك قوى الغلام، قضّ مضجعه، حرق قلب الأم المفجوعة، فلم تنتظر يوماً واحداً بعد عام من موت الحاج، حتّى شرعت تلحّ على شامان بالرحيل، لكن.. ليس الرحيل إلى معلّمه في الشمال، هي على يقين من صحّة خبر انتهى إلى سمعها.. من أنّ كهف سدرين هو العلاج الوحيد لكآبة ابنها، والمدرسة المثلى لتعليمه دروساً عظيمة في الشجاعة والحكمة والإنسانية، تمكّنه مستقبلاً من زرع الإقليم سلاماً، فاتخذت قرارها من دون استشارة أحد، منتهية إلى إجابة وحيدة على أيّ تساؤل: "شامان فتى بالغ، سافر في طلب المعرفة، وسيعود يوماً مع صيده الثمين"

***

قال (كونفوشيوس) :

" لا يمكن للمرء أن يحصل على المعرفة

إلاّ بعد أن يتعلّم كيف يفكّر . "

هل خطر في بالك تحطّيم إناء من فخّار صيني، أو تكسير لوحٍ من زجاج فرنسي، أو فازٍ ملوّنٍ من الكريستال النمساوي؟ غالباً ما يصعب على المرء الإقلاع عن إحدى عاداته، لا بأس! جرّب، أو لا تُجرّب! سيبدو الأمر ممكناً، أو لا يبدو! الأغنية التي ترفض غناءها، هناك من يُغنّيها! لا تسأله لماذا ترك كلّ المغريات، ليعود إلى حقله. أنت تشرع في فتح كتاب، كان الآخر قد طواه! فهو مضطرٌ لإكمال عمارته، ما دامت السيّدة عاجزة عن إخماد نار الذكريات.

ميخا

في وقتٍ كانت العصافير تنفض ماسات النّدى عن أجنحتها الكسولة، وتطلق بواكير أغانيها الجريئة، يخرج (شامان) مقتفياً أثر فلاح تجري أمامه بقرة صغيرة ملوّنة.

لم يهتمّ الفلاّح لأمر شاب غريب يتتبعه حتّى حطّ به المقام في حقل صغير معشوشب.. يعلو، ويهبط.. ومن ثمّ يلتفّ إلى ما وراء هضبة تعتمر أشجاراً حراجيّة كثيفة.

وقف الشاب منبهراً من فلاّح، يُجهد نفسه وبقرته في حراثة حقل ضيّقٍ، يتلوّى بين جفنات خضراء، تناثرت حول كُتلٍ صخريّة متباعدة، طلعت على أكتافها نباتات رعويّة شتّى، لم ير مثلها في مسقط رأسه، حيث النهر العريض الممتدّ إلى المحيط، والسهول الواسعة المترامية الأطراف.

قال في نفسه: "ما أصعبه من عمل، وما أهونه! لو حصل في سهول بلادي حيث لا أشجار حراجيّة تتعثر سكّة المحراث بجدورها، ولا حجارة تمنع تقدّمها في التراب"

لم يَسمع له صوت، ولم يُلاحظ تذمّر من بقرته، تابع مسيره البطيء، ومن ثمّ توقف على مقربة منه، بعد أن حيّاه، مباركاً عليه صبره وجهده ورزقه، طالباً أن يرشده إلى كهف سدرين.

لم يجبه الفلاّح عن سؤاله، إنّما سأله بعد تأمّل واحتراس:

"أتعرف الجهات الأربع يا سيّدي؟!"

أجابه شامان: "طبعاً، أعرفها!"

"يبدو لي أنّك غريب، واسع الاطّلاع، وليس بخافٍ عليك أنّ لكلّ بلاد ما يميّزها عن باقي بلدان المعمورة"

"أنا ابن سهول، تغسل أقدامها في المحيط، بإمكاني السير في الليل مهتدياً بالنجوم"

"لعلّك تُدرك أنّنا واقفون على قمّة جبلٍ جئتَه باحثاً عن مرادك؟"

"تماماً.. يا سيّدي، فما الذي ترغب في قوله!"

"أرى من واجبي أن أخبرك بما تجهله، فقد سبقك كثيرون إلى ما يدور في خلدك، طرحت عليهم سؤالي، أسمعوني كلاماً شبيهاً لما أسمعه منك، أو ما يختلف قليلا عنه.

أجمعوا على معرفتهم للجهات، تصوّر أيّها السيّد! منهم من قال: "أنا ابن الصحراء، أهتدي بالنجوم" ومنهم من قال:" أعمل في البحر، ولديّ بوصلة" ومنهم من كان يصطحب مُنَجّماً، أو دليلاً، أو خارطة.

لا بأس، أنا لم أذهب إليهم، لهم قناعاتهم، لي قناعتي. إذا لم تكن لدى المرء رغبة حقيقية في تغيير قناعاته، فلن يستطيع جبل (شان) بكبير حجمه، وثقل وزنه، أن يُغيّر شيئاً منها، ببساطة.. سيرفض أيّة مساعدة لتغييرها، حتّى لو كانت منك - لماذا ! - لأنّك تعرف بواطن الأمور، وما تسوّل به نفوس أعدائه، سيظهر لكَ غير ما يُبطن، وما أكره أن يبطن المرء خلاف ما يُظهر! ويظهر خلاف ما يبطن!

سيقول آمنت بمعتقدك، أو قبلت بمقترحك، أو أعجبني رأيك، لكنّه لا

يلبث أن ينقلب عليك كافراً، أو رافضاً، ناكراً سابق أقواله، الحقيقة التي لا أخشى قولها، لا أريد حمل أحدٍ على المضيّ ورائي، حتّى بقرتي، لا أرغمها على ذلك، بل أرغب دائماً في أن تكون أمامي، لأنّها الوحيدة التي تسعدني بين كلّ من أعرفهم. تخيّل أنّها تعطيني حليبها الطازج النقي، حتّى لو قدّمت لها العلف القديم اليابس، لكنّني لست طمّاعاً، لا أشرب من حليبها، إلاّ ما يكون ثمنه أقلّ من ثمن أتعابي في خدمتها، أمّا ما نتقاسمه من أعمال الفلاحة، فتجعلنا متكافئين عند الحصاد، نتحاصص المحصول، القمح لي، والتبن لها، كلانا مقتنع بنصيبه، وغالباً ما أكون الخاسر في القسمة، خصوصاً حين تستهلك علفها سريعاً في الشتاءات القاسية، ما يدفعني إلى قبولها كضيفة عزيزة تشاطرني قمحي ورغيفي، لست مضطرّاً للكذب عليك، تصوّر! لو مرضت بقرات القرية، لا تمرض بقرتي، ليس لسبب سوى أن الكثير من أطفال القرية يعتمدون في غذائهم على ما يخرج من ضروعها" توقّف الفلاح قليلاً عن الكلام، ومن ثمّ استطرد، قائلاً: "دعنا من شأن البقرة فهي بخير، ولنذهب إلى شأن الزوّار، أنا لم أبدأ في توجيه أسئلتي إليهم، هم شرعوا في توجيه أسئلتهم إليّ، لا بأس! أنا لا أمنعهم من المسير، أو البحث عن كهف سدرين، تلك مشكلتهم، ليست مشكلتي، كنت أتمنّى أن يفهموني، لكنّك لا تستطيع إكراه أحد على فهمك، إن لم يكن راغباً في الإصغاء إليك، طبعاً! أرجو ألاّ تفهم من حديثي أنّني أعطيك درساً في أدب الإصغاء، فقد تعلّمت منه قليلاً، لو تعلّمت منه الكثير لما حصل لي ما

حصل. لا بأس! أكاد لا أفهم، لماذا يبدّد هؤلاء وقتهم، لا أنتقص من شأنهم – عادتي! – أليس لدى كلّ امرئ عادة، إن لم تكن لديه أكثر، وعادتي — هذه – لا أستطيع تغييرها، خصوصاً بعد أن استصلحت هذه القفار، وطوّعت ما طلع فيها من صخور وجذور، لا أرغب في تبديد وقتي بثرثرة مملّة حتّى الترهّل والإرهاق، ولا برفع محراثي من ثلم جرحته سكّته، لماذا؟ كي أنظر في عينيّ محدّثي؟! لا بأس، لو فعلت ما يرضيهم، فأصخت السمع إلى ثرثرتهم، ونظرت بصرامة إلى عيونهم وشفاههم، لداهمني الشتاء قبل أن أبذر بذاري – الشتاء! – أُخبرك، وما أدراك ما شتاء جبل شان؟! ريح شرقيّة.. ريح شماليّة.. ريح غربيّة.. ريح جنوبيّة.. أنت أمام رياح، وبروق، ورعود، وزمهرير، وشحّ في المؤن، وضعف في الخدمات، حتّى لتحتار في من تشتم منهم قبل الآخر، حذار أن تشتم منهم أحداً، أو حاول! طبعاً لن تخدمك لغتك في شتم أحد.. أنت في سدرين أيّها الشاب! ثمّ ألا ترى أنّ الإنسان يبذل جهوداً كبيرة في تعليم الحيوان بعض من عاداته وحركاته، لكنّه يزهد في تعلّم دروس مهمّة منه. يُحكى أنّ في أماكن بعيدة عن هذا الجبل أخذ العلماء جلّ اختراعاتهم من تطبيقات أُجريت على بعض الحيوانات، أو من رصد حركاتها وعاداتها، كما أنّني قرأت ما يؤكّد أنّ العصافير عند نومها، تدسّ رؤوسها تحت أجنحتها، والثعالب تضع رؤوسها عند مؤخّراتها.. بالنسبة لي لا أستطيع النوم ورأسي مغطّاة، بيد أنّني أجمع أصابعي لأضعها أمام فمي، ربما الأفضل للمرء أن يصغي أكثر ممّا يتكلّم حتّى في نومه"

كان الفلاح هادئاً، رصيناً، واثقاً، كما لو أنّه يتحدّث إلى نفسه، منشدّاً بانتباه وحذر شديدين إلى محراثه وبقرته، بينما كان الشاب يروح ويجيء على مقربة منه، كما لو أنّه واقع تحت تأثير ساحر.

"الليلة، ربّما تكون تجربتي الأولى في سدرين"

قال شامان بعد انتظار وتأمّل: "لم أسألك، إذا كنت تعرف الجهات في الليل، سألتك إذا كنت تعرفها في النهار، انظر أيّها الضيف! الوقت ضحى، والشمس غزالة، تنشر خيوطها الجريئة على أشجار الجبل، ما فهمته منك، أنّك تريد الوصول نهاراً إلى كهف سدرين، وتعرف الجهات في كلّ الأوقات والظروف!"

"الأمر، لا يختلف عليّ كثيراً، ولا يصعب.. ببساطة، لا يكلّفني سوى إغماض عينيّ، فأهتدي"

مشى الفلّاح وراء محراثه، ولما تعثّر رأس السكّة بحجر ذي جذر عميق، توقّف قليلاً، ضغط بقبضته اليسرى فوق اليمنى، وهو في دهشة ممّا سمعه من الشاب، في الوقت الذي كانت بقرته تجهد نفسها للخروج من الثلم، وقد شرعت بعصبيّة تحرّك ذيلها في محاولة لإبعاد ذبابة وقحة، ما برحت تعاكسها جيئة وذهاباً.

قال الفلاّح: "لو كنت تعرف الجهات كما تدّعي، لاتّحدت معها، فما اختلفت، ولما احتجت إلى سؤال أحد، لا أخفيك سراً أنّ الفضل في اتّحادي مع بقرتي ومحراثي وحقلي، يعود إلى رماد بُذر في تراب هذا الحقل، مات وهو في ريعان شبابه – في الحقيقة –كان معلّماً، فسدت

طباع الناس، زمن ليس كالأزمنة، ربّما لا يشبه غير نفسه، قليلون هم منَ يعترفون بفضائل الجبل، عاهدت نفسي ألاّ أتشبّه بأحد منهم، سأعيش مختلفاً، لكنّني لن أمنع الحليب عن أحد منهم، هذا شيء، وذاك شيء آخر، أذكر أغنية كان يردّدها كلّ صباح، كدت أملّ من سماعها، كانت تشيد بالنفس المهذّبة، والحضور اللطيف، يومئذٍ كنت شقيّاً، آسف لما بدر منّي، الموسيقى عبادة، الغناء عبادة، اللعب في الرمل عبادة، النحت على الصخر عبادة، معرفة الألوان عبادة، الرسم عبادة – نحن التلاميذ – كنّا نتبارى متباهين بعباداتنا" واستطرد: "هل سأل الفتى أحداً سواي؟"

لم يجب شامان على سؤال الفلاّح، فقد أسكرته كلماته، تذكّر نصائح معلّمه، مثُلت صورته المهيبة أمام عينيه، انصرف مسرعاً، وكاد يغادر دون كلمة وداع.

"ليس من الإنصاف أن أصطحب الغريب إلى غايته، هذا يعني أنّني أوفّر عليه جهداً، واكتشافاً.. ما أدراني أنّ اصطحابي له يسيء إليه، على الدروب التي نسلكها الكثير ممّا يصعب إحصاؤه، هناك أشياء وحيوات، كلّ عين تنظر إليها بزاوية تختلف عمّا تنظر إليها الأخرى، وكلّ شخص يفهمها بمعنى يختلف عن المعنى الذي يفهمه الآخر، وفي الطريق إلى أهدافنا نملأ سلالنا الجائعة بقطاف مختلفة ألوانه وأحجامه، ومختلف مذاقه، حتّى نتّحد مع حصادنا، ندافع عنه، نموت من أجله، ليتنا نرمي أحمالنا فوق أحمال الآخرين في ملتقى الدروب.. الآخرون تعبوا من أحمالهم، ليس من حقّنا أن نبخسهم غلالهم.

لم يصحبني أحد إلى غايتي، إذا كان لديك قلب عامر بالمحبّة، ولا تجد منهم سوى العداء، بعد أن كسروا الجرار، فاستحال عليك النفاذ من ثقب أو كوّة، كي ترسل أنفاسك مع الأثير، مع نور الشمس، مع ضوء القمر، لكنّهم مصرّون على عدم قبول رُسلك ورسائلك، طبعاً ستبحث عن وعاء آخر تصبّ فيه نبيذ محبّتك، أنا وبقرتي ومحراثي.. نسكب دنان محبّتنا في حقلٍ ترابُه معجون برماد معلّمي، لذلك فهو حريص على أن يبادلنا المحبّة، مزهوّاً كلّ ربيع بما لديه، حيث تكون أزهاره أكثر عرفاناً، وأنفذ عطراً. لم أطلب من أحد أن يصحبني، ولم يتبرع أحد لاصطحابي، يه! غادر الضيف، لا بأس! دعه يفتّش بنفسه عن كهفه المنشود!"

وقفت البقرة مشدوهة في منتصف الثلم، ارتبك الفلّاح ظنّاً منه أنّ ابن آوى ظهر فجأة أمامها، فقد كثرت الثعالب والثعابين في الآونة الأخيرة بين الكهوف.

"يؤسفني أيها الشيخ أنّني لم أقدّم لك خدمة تُذكّرك بي، لديّ شعور بالندم، لهذا أعود إليك عارضاً خدماتي، راجياً منك قبول اعتذاري، وثِق أنّني لا أريد منك مقابلاً" قال شامان.

"كان بودّي تلبية رغبتك، يؤسفني أن أقول لك، لا أحد سواي يفهم لغة بقرتي ومحراثي، ما كان بإمكانك مساعدتي في إنجازه، فقد سبق لي أن قمت به قبل مجيئك إلى قريتنا، اعتدت احترام غايتي، والوفاء بالتزاماتي في وقتها، امضِ في سبيلك، لست عاتباً عليك، ولا لائماً، أو حاسداً، وهذا ما يريحني" قال الفلاح.

"لكنّني متأكّد من أن هناك حجراً خفيّاً، تعثرت به سكّة محراثك.. هلاّ طاوعتني، فأزحناه من الثلم معاً؟!" قال شامان.

"إنّك الوحيد من بين الغرباء من لاحظ وجود حجر بجذر، أنت ذكي أيّها الغريب، سريع البديهة، دقيق الملاحظة. لأن يحيط المرء علماً بمفردات الأسئلة، لأفضل بكثير من أن تحاصره نتائجها؟!" أجاب الفلاح.

" لم أفهم ما تعنيه بكلامك" قال شامان.

"الآن.. ليس بالضرورة أن تفهم ما أعنيه!" أجاب الفلاّح.

ودّع الغريب الفلاّح مردّداً:" أن يحيط المرء علماً!"

بين تأمّلٍ، وهذيان، وتساؤل داخليّ، أثارت انتباهه حركة بين صخرتين تشرفان على وادٍ يتباهى بأشجاره السامقة من حور وسرو وصفصاف، استدار باتجاه الصخرتين، تسلّق الهضبة، شعر بتعب شديد، ما لبث أن أقعده، جلس على مصطبة خضراء، سرّح ناظريه باتجاه الهضبة المجاورة حيث أصبح يرى بوضوح ظلاً، وقد وقف رجل طويل القامة، عريض المنكبين، استقبل الظلّ بوجهه مديراً ظهره على الوادي، رافعاً يده اليمنى، قاذفاً الظلّ بشيء لم يتبين شامان ماهيّته.

توقّف شامان متأمّلاً، ومن ثمّ انطلق مسرعاً نحو الرجل، لعلّه يلتحق به قبل أن يدخل الكهف، أو يغادر إلى مكان آخر، هناك استقبلته الخيبة، انفجر غاضباً، وغادر المكان مندهشاً، لما بلغ الصخرتين الطالعتين من صدر الجبل الأشمّ، حين لم يرَ ظلّاً، ولم يلتق الرجل.

ناديا

تقول إن النسيان نافذة مفتوحة على الوعي، لا سبيل إلى تنظيم الداخل وإدارته، إلاّ بعد إغلاق النوافذ المشرّعة للجهات المحمومة، تلك التي يتسرب منها ماء الذكريات، والرياح الباردة العاصفة، والغبار.

وتقول نحن معشر النساء أدرى بهذا الأمر من معشركم – أنتم الرجال- نضطرّ لإغلاق نوافذ الحجرات عند هبوب الرياح المحمّلة بالمطر، أو بالغبار، وإلاّ تحوّلت حجراتنا إلى مستنقع للماء والغبار، الذي بدوره يعيق عملية ترتيب أثاثها، هذا إن لم يتلفه.

من ثمّ تقول ليس هناك أدرى بحال الابن من أمّه، حتّى لو كانت فترةٍ ملازمته لها أقلّ من فترة ملازمته لأبيه، وأنا توجّهت إلى إعادة إنتاج شامان بعد موت أبيه.

حاكموني أمام أكبركم، وإذا كان مثولي أمام محكمته لا يليق بمقامه الرفيع، حاكموني أمام ضمائركم.

ربّما بكسلٍ وغياب سلّمنا وعينا الفرديّ والجمعيّ لمنظومة من عادات وتقاليد استبدّت بتفاصيل حياتنا، فلا هي انسلخت عن أفعال حاضرنا، ولا تعرّينا من قمصانها العتيقة، حتّى غدونا نهلع لمجرد الحديث عنها.

وتقول إنّ المنتج، أيّ منتجٍ، هو مجموعة من عناصر مضافاً إليها، الفكرة والحرفة، أمّا نجاح أيّ منتجٍ، فهو مرهون بجودة مجموع عناصر مادّية وفكريّة ومناخيّة، تطلّبها إنتاجه.

وتقول من حقّي إنتاج شامان بالمواصفات التي أرغب فيها، ألست الوعاء النظيف الذي خرج منه، لكن هل سيحالفني النجاح لو أشركت في عملية إنتاجه من لا مصلحة لهم في جودة منتجي، وحسن أدائه؟!

يثقب شرنقة الوهم، بما شحنتُه من أفكاري، يجري كنبع لا يتعبه المضيّ إلى غايته، مبحراً دون ملل، أو وجل.. بعيداً عنهم وعنّي، سيكتشف كثيراً ممّا كان يجهله، ليعود إلينا محيطاً بما يُغني، وقد اكتشف ذاته بعيداً عن أيّ مظهر من مظاهر التلوّث، وأيّ ضرب من ضروب الأنانيّة والافتراس، فيمارس وعيّاً يشعل حطب موروثنا اليابس، يلوّن صفحات أيامنا المقبلة بزاهي الألوان، ويمدّ سواقينا العطشى بالجريان.

ما همّها أنّهم اتهموها بالجنون، فأشفقوا عليها، ولا ضعفت أمام شماتتهم، فهربت من مواجهتهم. هي قناعتها، هو إيمانها.. وتقول في نفسها ما يصعب البوح به، هل تهندس مشروعاً لشباب الإقليم، أم إنّ الرمال ستنجح في تحدّيها لسيّدة أرملة تنتظر عودة ابنها منتصراً؟

يظنّون أنّ الجهات عرجاء والثيران غبيّة

ما إن بلغ شامان حقلاً آخر في مسيره السريع، حتّى استوقفه مشهد لفلاحٍ آخر، يمشي بخطى واثقة وراء محراث طويل، يجره ثور كبير أسود ما انفكّ بلطف يخاطبه، ربّما مخافة قرنيه الغليظين الملتفّين، وقائمتيه الخلفيّتين الطويلتين المكتنزتين، أو تقديراً منه لما يقدّمه له من سخرة، هذا ما بدا لشامان المتتبّع حركة الفلّاح وثوره.

قبل أن يستدير الفلّاح عائداً من آخر ثلم أنجزه، ليبدأ بثلم أخر من حيث بدأ مع ثوره، كان شامان لم يزل متوارياً في الدغل المجاور حابساً سؤاله التقليدي في صدره – لا تحبس أسئلتك في صدرك. إن حبس الأسئلة الملحّة في الصدر خطير – هذا ما أوصاه به معلّمه.

كما قال له أيضاً "الوردة التي لا تتفتّح لا تنشر عطراً، اخرجْ كلماتك من العتمة إلى النور! تخضرّ في فؤادك شجرة الكلام، على لسانك تزهر أغصان المعرفة، وبين يديك تنضج فاكهة الأفعال، السؤال المنطقي مثل الغرسة الجيّدة، يتغذّى من الاستماع، وإلاّ يكون الإجهاض مصير الكلمات المحبوسة، تماماً، بالنور تورق شجرة الحياة وتزهر، وهل هناك من ثمار دون أغصان وأوراق، ثِق بقولي يا بنيّ أنّ ما من شيء علّمني أكثر من السؤال، ولا ازدادت معارفي إلاّ بتواضعي لمعلّمي"

انتاب شامان إحساس بالذنب، فهو لم يُلقِ التحيّة على الفلاح، ولم يعمل بنصيحة معلّمه، كان من واجبه تلبية رغبات أمّه التي تريد منه

العودة السريعة، مفعماً بالحيوية والنشاط، والأمل، ممتلئاً طاقة وعزيمة، وقد اكتسب شجاعة وحكمة تجعلانه يتفوّق على أبناء عمومته.

حسم الأمر مع نفسه، تغلّب الشاب على تردّده، استدار عائداً من حيث مرّ بالفلاّح القوي، وثوره، ومحراثه، وبنفس الطريقة التي سلكها مع الفلاّح الشيخ، حيّا الفلاّحَ القوي، وبارك له جهده ورزقه.

ردّ الفلاّح التحيّة، قائلاً في نفسه: "لن يكون هذا الغريب، الذي يمرّ بي الآن، أفضل من سواه، كثير من الزوّار يدوسون هذه الطريق، ويقفون سائلين، لكنّ أحداً منهم، لم يعد إلى حيث ودّعني، سأجرّب ألاّ أجيب الغريب على أسئلته، حتّى لو طال به المكوث، وألحّ عليَّ كثيراً في الأسئلة"

تكدّر وجه شامان، لما وقف قبالة الفلاّح القوي، فلم يعره الفلاّح أدنى انتباه، ولم يأمر ثوره بالتوقّف، أو يرفع سكّة محراثه من رحم الأرض الجاف. قال في نفسه: " لم أقل شيئاً يجعل الرجل يعرض عنّي، والسلام الذي رميته على الفلاّح الشيخ، هو نفسه السلام، الذي أرميه على الفلاّح القوي، سأقترب منه، وألحّ عليه في السؤال، ولن أعصي أوامر معلّمي، أو أنكث في عهدٍ كنت قد قطعته لأمّي"

اقترب شامان كثيراً من الفلاّح، حتّى رأى بوضوح تعابير وجهه الصارمة، بينما كتم دهشة ممزوجة بالخوف من حجم رأس الثور الكبير، ومن قرنيه الغليظين، وقوائمه الطويلة المكتنزة.

بدا له جليّاً تجاهل الفلاّح لحضوره، في الوقت نفسه شعر الفلاّح بمعاناة شـامان، لكنّـه أصـر ألاّ يعـيره انتباهـاً، منـدفعاً وراء محراثـه، محـدّثاً ثـوره بمصـطلحات محليّـة، لم يألفهـا سمـع شـامان القـادم مـن بيئـة مختلفـة، فلـم يفهم شيئاً منها.

قال الفلاّح في نفسه: "أتوارى خلف صرامتي، فلا أدع له مجالاً للأسئلة السـاذجة، ذلـك أفضـل بكثير مـن أن أظهـر أمـام الشـاب بمظهـر بسيط، فيتوارى خلف الجبل، ولا يعود إليّ ثانية، كما فعل الأخرون، كفاني ما بذلته من جهد، وما أسديته من نصح لمن سبقوه من سائلين، لم أر بعد وجه واحد منهم، منذ الآن سأهتمّ بثوري ومحراثي، هما الوحيدان اللذان أسـألهما فيجيبـان، يسـألاني فأجيـب، أنـام معهمـا وأسـتيقظ، يعرفـان الجهـات كلّهـا، فـلا حاجـة بهما لبوصـلة، أو لمعرفة واسعة بعلـم النجـوم، وفيّـان.. لم يسـبق لهمـا أن ضـلّلاني في طريـق الـذهاب، ولا في طريـق الإيـاب، علـى الـرغم مـن أنهمـا لا ينظـران إلى السـماء عنـد مرورهما فـوق طرقات سدرين المتعرّجة والضيّقة.

أفهمهم جيّداَ، هؤلاء الذين يجيئون إلى بلادنا، جماعات، وفرادى. يظنّون أنّ الثـيران غبيّـة، والأشـجار صـمّاء، والجهـات عرجـاء، وفي ميسـور كـلّ واحد منهم التحدّث عن نفسه ما شاء دون أن نتفهّمه، أو نفهمه، كما باستطاعته أن يربك الجهات الأربع بخطواته العمياء، وأن يجعل ثيراننا تهاجمه، لو ارتدى لها سترة حمراء" قال الفلاح في نفسه.

فهـم شـامان أنّ تجاهـل الفـلّاح القـوي لـه، لـيس إلاّ غـروراً ، وشـعوراً

بالتفوّق والاكتفاء.. هو ملتصق بأرضه، لا يرى نصيراً له سواها، تمنحه القوّة والاكتفاء، فمن حقّها عليه – الوفاء – ومن ثمّ الوفاء.. فلماذا يصرف عنها ناظريه ليهتمّ بسواها من مشاهد، ويصيخ السمع إلى حديث سواها!

قال شامان في نفسه: "ألم أقل للفلاّح الشيخ، إنّني أعرف الجهات جيّداً، وأهتدي ليلاً بالنجوم، فلم يبخل عليّ؟! لِمَ الشكّ إذاً؟! هل غرّر بي؟ لماذا أُعملُ الظنون بمن أسألهم، لماذا أصرف الوقت في التردّد، واللجوء إلى من لا يعيرونني سمعهم، ولا يوجّهون إليّ أبصارهم؟ إن لم أهتدِ إلى كهف سدرين، لا شكّ في أنّني ضائع، خطّطت أمّي لمجيئي إلى سدرين، قابضة بقسوة على قلبها، ماسكة عينيها عن البكاء، مستيقظة على أملٍ بعودتي منتصراً"

انسحب شامان من الحقل تاركاً الفلاّح القوي مع ثوره ومحراثه، مضى في طريقه إلى قمّة الجبل، لحظة.. كانت الشمس، تحضّر نفسها للاغتسال بماء البحر، مُدركاً، أنّه يمشي في اتجاه الشرق الصحيح، فأدركه غروب الشمس، يقولون: "الفجر إمام الأقوياء" غداً، سيرى بزوغها المدهش من وراء جبل شان، مادام مؤمناً بأنّ كهف سدرين مانح الشجاعة، والصبر، والسعادة، والشافي من أمراض كثيرة.. لا يُعقل أن يُعثر عليه إلاّ في الجبال، هناك.. لا يبلغ السيل القمم. لكنّ المريض الذي جاء للتداوي يشقّ عليه تسلّق الجبال، والبحث وراء الصخور والغابات عن الكهف المعجزة. هل هي الأحجية؟

"على المصدّق بكهف سدرين أن يأتيه، سواء كان في الوادي، أم كان في الجبل، فإن كان في الوادي فهو مضطرّ للنزول إليه، من ثمّ تسلّق الجبل عائداً من حيث أتى، وإن كان في الجبل، فهو مضطرٌ للصعود إليه، من ثم الانحدار عائداً من حيث جاء.. أُشغل نفسي بأسئلة ليس لها إجابات، متى كنتَ نافذ الصبر يا شامان؟!"يقول في داخله.

مرّ شامان بشجرة خضراء عالية، تأمّلها من الجزع حتّى نهاية الأغصان، شجرة البلوط هذه تتغذّى من جذورها، هذا يعني أنّ الماء المختلط بالغذاء يصعد من باطن الأرض إلى أغصانها العالية، ليس هناك مضخّة! ما أسعد البائع الجوّال حاملاً سلةً محشوّة بأشياء مشتهاة! الناس يسألونه، لا يسأل أحداً. يحتاجون إليه، أكثر ممّا يحتاج إليهم.. أكثر ما يحزنه ويقلقه أن تبور تجارته، لكنّ تجارته لا تبور، كهف سدرين لا يعنيه في شيء، ولا السيوف البتّارة، وصهوات الخيول، وقرع الطبول، حتّى لو رغبتُ في أن أكون له رفيقاً لما رغب برفقتي، نحن من جذرين مختلفين، لا أستطيع أن أكون مثله، ولا يستطيع أن يكون مثلي، لكن أليس الخير في التنوّع والاختلاف؟ أغبطه على اجتماع الناس حول سلّته، وعلى كثرة معارفه وعلاقاته، خصوصاً مع حوريات الجبل، يحفظ أسماءهن، يمرّ بشرفاتهنّ، ونوافذهنّ، يسمع أغانيهن، يعرف الكثير من أسرارهن، ولا أظنّه يعتقد بوجود حوريّات في السماء، كي يصرف جّل وقته وماله ودمه للحصول عليهن.. أم إنّه مقُدّرٌ عليّ المشي وحيداً بين غابات جبل شان لاهثاً وراء غايتي دون رفيق؟!"

هل أجابك أحد قبلي ؟

يتسابق الفلاّحون إلى حراثة حقولهم قبل قدوم العواصف، حيث تتساقط أمطار غزيرة فوق جبل شان، يندف الثلج، وتهبّ رياح قطب شماليّة باردة، فيلزم الناس بيوتهم.

في ذات تأمّلٍ وتساؤل، قال في نفسه:

"أكاد لا أصدّق ما أراه وأسمعه، حتّى حيوانات سدرين، لا تكلّ، ولا تملّ، ولا تتذمّر. أيّة سعادة، وإرادة، وعزيمة، يمنحها الكهف لهم!"

لذلك كان من الطبيعي ألاّ يسمح الشاب للتردّد، والوهن، والهزيمة بإحباط إرادته، وشلّ عزيمته، وألاّ يتعب من طرح أسئلته على بعض من يصادفهم من سكان الجبل، على الرغم من أنّه تعرّض لأكثر من مرّة إلى غمزٍ بسؤال محرج، تردّد غالباً على لسان من سألهم:

"هل أجابك أحد قبلي؟!"

حين تكون الإجابة نفياً، يسمع اجابات مختلفة تتناسب مع موقع المجيب من كهفه الشخصي، منهم من يشير إلى الشرق، ومنهم من يشير إلى وجوده في الشمال، هكذا.. حتّى إنّ هنالك من أشار إلى الشمال الغربي، أو إلى الجنوب الشرقي، وكان شامان دون أدنى شكّ، يصدّق كلّ ما يقال، فيزرع الجبل بخطواته، مارّاً بأراضٍ طينيّة تغوص الأرجل في أوحالها، وهضاب جرداء تصفر الريح في ثقوب صخورها، وغابات عصيّة على الاكتشاف، ترتعش العظام، وتنقبض القلوب لمجرّد عبورها،

هكذا، كلّما غربت شمس، أرجأ شامان بحثه إلى شروق شمس يوم جديد.

أمّا إذا أجاب بالإيجاب، فقد كان يسمع قولاً واحداً:

"سر على بركة الخالق، اتبع الإشارة، كلّ من في سدرين صادق!"

المعلّم مانـي

في طريقـي إلى المدرسـة رأيـت الشـاب شـامان علـى مقربـة مـن الفـلّاح (ميخا) رميت عليهما السلام، وتجاوزت المكان مسرعاً إلى مدرستي، التي كان بعض تلامذتها يذكرون اسم شاب غريب يقيم في سدرين إلى حين عثوره على كهفهـا. سـألني أحـد التلاميـذ إذ كـان مـن حـقّ هـذا الغريـب دخـول كهـف سـدرين قبـل دخـول جميـع تلامـذة المدرسـة، وسـألني تلميـذ آخـر إذ كـان مـن حـقّ الشـاب أن يقتلـع الكهـف مـن مكانـه، ليذهـب بـه إلى إقليمه البعيد، أمّا الفتاة التي تجلس في المقعد الخلفي من الصفّ فقد برهنت على أن ترك فجوة في جبل شان، سيجعل منها بركة تتجمّع فيها المياه، الـتي لا تلبـث أن تغـدو آسـنة بعـد فـترة قصـيرة مـن الـزمن، قاطعهـا تلميذ فاحـم الشعر بقوله لا يجوز الوثوق بما قالته زميلتي إلاّ بعد حدوث عمليّـة الاقـتلاع، مـا أدرانـا أن يتفجّـر نبـع دائـم الجريـان. سـررت مـن تخيّلات التلاميـذ، ابـن الكـرّام رغـب في أن يكـون مـاؤه مـن نبيـذ معتّـق، وابن الزيّات رغب في أن يكون ماؤه من زيت، أمّا ابنة العسّال فلم تخفي رغبتها في أن يكون ماء النبع من عسل. كان يقول لي لن تجمع مالاً يا ماني أنـت لـن تصـبح غنيّاً، ليسـوا غربـاء عنـك، ولا بعيـدين، لا يفصـلك عنهم سوى بضع مئـات مـن الأمتـار، غـير مبـالين بـالقيّم والأعـراف، ولا يخشـون رجـال الأمـن، مـنهم مـن يشـتغل في زراعـة الحشـيش، آخـرون يعملـون في تهريبـه، تـراهم منحـدرين إلى البحـر بأكيـاس الحشـيش، كمـا

تراهم عائدين من البحر بصناديق الذخيرة والأسلحة، خزائنهم متخمة بالأحجار الكريمة والنقود، نساؤهم يرتدين أفخر الألبسة الأجنبيّة، أولادهم يركبون أفخر وأحدث العربات الأوروبيّة واليابانيّة. ستبقى فقيراً يا ماني، وستدرك مؤخّراً أنك لم تمش في الطريق الصحيحة، ولن تشفع لك مبرراتك الساذجة بعد فوات الأوان. كان في إمكاني أن أقول له ما كنت أقوله للكثيرين من الذين كانوا يظهرون لي ودّهم وتعاطفهم، فأخرسه، كما اعتدت أن أخرسهم في كلّ مرّة كانوا يزهدون بما أتقاضاه من أجر، ولم أكن أندم حين ينفضّ مجلسنا بعد كلّ مشاحنة، يكون سببها التحدّث عن المال والأعمال والعربات والعقارات. لكنّ محبّتي لأخي، كانت أقوى من ألم سخريته، حتّى لو كان مبالغاً بها، سواء حدثت بيننا نحن الاثنين، أو حدثت أمام زملائه. كان واحد من أقراني المقربين لأخي يمعن في سخريته منّي، ولا أعلم ممّن سمع بأفلاطون، وسواه من الحكماء والشعراء ورجال العلم والإبداع، فيقول لأخي هازئاً ما يحرق كبدي، ويرفع من ضغط دمي:" أخوك ماني سيعيد انتاج ماركس، وانجلز، وطاغور، ومن بين طلابه سيخرج من هو أعلم من سقراط، وأحكم من لقمان، وأشجع من الإسكندر." وقبل أن تنتهي فصول سخريتهم منّي، ومن مدرستي وتلاميذي، وممّا آلت إليه حالي من عوز، وضنك عيش، كنت أتركهم لنزواتهم متأبطاً حقيبة مملوءة بالوجع والخيبة، وأنا في طريق عودتي إلى بيتي الصغير، الذي كان وحده يصدّ عنّي لعنة التواصل مع أصدقاء أخي الغيورين على مستقبل خمرتهم وتبغهم ونزواتهم.

إنّه جبل (شان)

لما جاء شامان إلى سدرين، لم يزر أسواق البلدات المنتشرة على طريقه، كانت حقيبته محشوّة بملابس تقليديّة، فقد كان جاهلاً بطبيعة البلاد، وما يمكن أن يعترضه في تجواله من عقبات، تضطرّه لارتداء لباس خاص. تبادر إلى ذهنه أنّ كهف سدرين ليس إلاّ معلماً سياحيّاً، تصله بالقرية طريق معبّدة، هناك من يستقبله عند بابه، آخذاً به إلى أعماقه، مرشداً له، شارحاً تاريخه، دائراً به حول صواعده ونوازله، في الوقت الذي خُيّل إليه أن نهراً جارياً في أعماق الكهف، وقارباً ينتظر سيّاحاً وافدين.

صعوبات كثيرة، لم يحسب لها شامان حساباً، تزداد يوماً بعد يوم، لتعترض سبيله.. إنّه جبل شان، بمسالكه الضيّقة، الوعرة، المحفوفة بالمخاطر!

لما كانت تحاصره الأشواك، وتتزاحم في دربه الصخور والحجارة، كان يرفع عباءته حتّى ركبتيه، فتبرز ساقاه.. لتتصدّيا عاريتين لنباتات تعترض مسيره تاركة عليهما جراحاً، وبقعاً، وندبات، غالباً ما كان يبدّد الكثير من وقته في تخليص ما كان يعلق بعباءته من طين، وأشواك، وأوراق نباتات لزجة، أو في تحري المسالك المغطاة بالحشائش والقصب من الزواحف، التي كانت تخيفه أكثر ممّا تخيف أطفال القرية، وبالرغم من شدّة حرصه في تجواله اليومي، ودقّة ملاحظته، فإن أيّ واحدة من عباءاته السبع، لم تنج من فتق ضيّق أو واسع.

تجربة جريئة، يعتمد فيها على نفسه، ينام متعباً، ويحرص على الخروج باكراً، مرجئاً غسل عباءاته ورتقها إلى حين اهتدائه إلى كهف سدرين.

عزّه كثيراً اهتمام أمّه به، وسهرها على صحته، وتأمين حاجاته ورغباته، اشتاق إلى رؤيتها، لكنّه الآن غريب، وحيد في هذه الديار، وعليه أن يحلّ مشاكله بنفسه.

سدرين بعيدة عن المدينة، ليس في القرية من منتجٍ للملبوسات، ولا مصبغة لغسيل الثياب، ولما فكّر باستعارة خيط وإبرة من جاره الملاصق، وجد نفسه محرجاً، فهو لم يجتمع به بعد، أو يفكّر بزيارته منذ وصوله إلى سدرين.

هل ينتظر لقاء بائع جوّال، لا يعلم مكانه سوى الخالق، أمس.. رأى رجلاً يشبهه من بعيد، لكنّه لا يحمل سلّة في ساعده.

سأعمل بنصيحة معلّمي

سأله معلّمه:

"لوكان لديك قطيع من ماشية، وكان جارك فقيراَ، هل تتردّد في استعارة ما تقضي به حاجتك"

ابتسم الغلام بعد سؤال معلّمه له، وكان المعلّم عارفاً، بما يمكن أن يدور في خلد تلميذه.

"أبتاع ما يلزمني، ولا أطلب حاجتي منه" أجاب الغلام.

"صحيح، وقتئذ، قد لا تكون محتاجاً إلى اللبن، أو غيره، إنّني أضرب لك مثلاً"

"هذا ما عنيت، لست مضطرّاً أن أطلب من جاري ما هو متوفّر لديّ، أو ما لست بحاجة إليه!"

"ربّما تدعوكَ الضرورة يوماً إلى سؤاله، تخيّل لو أصابك مكروه، وكنت وحيداً في منزلك، ألست بحاجة إلى من يقف بجانبك، ويهتمّ بك، فما اللبن يا بنيّ، أو الشيء الآخر، الذي تطلبه من جارك إلاّ سبباً جوهريّاً يدعوك إلى التواصل معه، ليقُلْ جارك ما يحلو له، أريده أن يقول، والحقيقة تريده أيضاً أن يقول، ما يضيرك لو قال في نفسه:

"جاري على قدر كبير من الثراء، وأخيراً.. هو ذا محتاج إليّ!"

"لن يقولها في نفسه، سيقولها أمام قوم، يردّون الأمر إلى طمعي– أنا الثريّ – بلبنه!"

"دعه يقول ما يشاء، دعهم ينسجون حولك القصص، لكن، ربّما يدع الرجل أمرك سرّاً، فلا يتحقّق أيّ ظنٍ ممّا أنت ظانّه"

"ما المغزى الأكبر إذاً، قل بالله عليك يا معلّمي" سأل التلميذ.

"أن تتواصل مع جارك، كي تَحمله إلى طلب شيء منك، هو بحاجة ماسّة إليه، فلا تقل! لن أحتاج إليه أبداً، ليس منّا من لا يحتاج إلى جاره، وربّما يحتاج إلى جار جاره أيضاً، مهما طال بنا العمر، أو قصر، مهما عظمت ثروتنا، أو قلَّت"

قبل أن يبلغ شامان مشارف الحيّ، كان قد جلس على جدار حقل مشرف على سدرين مراقباً عودة الناس السريعة إلى بيوتهم، انتظر قليلاً، حتّى كادت الدروب تفرغ من المارّة، ومضى سريعاً إلى مكان إقامته، قبل أن يراه أحد.

قال في نفسه بعد أن تناول طعام العشاء:

"سأعمل بنصيحة معلّمي، أطلب من زوجة جاري غسل ثيابي، ورتقها.. ريثما أجد البديل، وإلاّ سأعتكف في المضافة، ريثما أخلص بنفسي من غسلها، وتنشيفها، لم أحضر إلى سدرين إلاّ ساعياً لتحقيق رغبة أمّي"

أبيٌّ أمٍّ أنت !؟

تعمل نساء سدرين داخل منازلهن وخارجها، يستقبلن الضيوف عند غياب أزواجهن، يشاركن في مختلف المناسبات، وهكذا اختلفت على شامان عادات، وبيئة، ومعشر.

بودّه لو يعود أدراجه، حيث رأى الفتاة الشقراء ذات الضفيرتين واقفة بقامتها الفارعة، مادّةً يدها مصافحة بعد أن استقبله الأب استقبالاً حارّاً في باحة الدار، لكنّ حفاوة الجار، ومهابة الموقف، منعتاه من الدوران إلى الوراء، ليعود من حيث جاء.

قال الأب:

"ليس من عاداتنا إهمال الضيف، قدومك جاء في وقت نعدّ فيه العدّة للمواجهة وإلاّ لدعوناك إلى مجالسنا"

"كفاكم ما قمتم به من أجل الزائرين، هي ذي أبواب بيوتكم مفتوحة، لطالما لُمْتُ نفسي حين أثقلت عليكم"

شامان يخشى وقوع عينيّ الفتاة الشقراء على المواضع المثقوبة في عباءته، راح يغطّيها بالجهة السليمة منها، إلاّ أنّه غالباً ما كان يفشل، فيضع ساقاً فوق ساق، مع أنّ معلّمه سبق أن علّمه آداب الجلوس.

الفتاة الشقراء لم تحدج بنظراتها العباءة، لم تنظر إلا في عينيّ شامان، عالمة أنّ أي نظرة استخفاف من شأنها إهانة الضيف، وتنفيره.

اطمأنّ الغريب من أنّ الفتاة لا تهتمّ لعباءته، فبقي حذراً، من أن تلتقي

عيناه بعينيها الخضراوين على الرغم من أنّ الشابّين كانا ينظران إلى بعضهما بدهشة واضحة.

أعرب شامان للجار عن عظيم امتنانه، لما لاقاه من حفاوة واهتمام وتقدير، فإذا قُدّر له النجاح، وعاد سالماً إلى أهله، سيجعل من داره مضافة لمواطني سدرين الكرماء، فقد أكل سريعاً، وشرب.. وقبل أن تضطره ساقاه المتعبتان للنزول عن الأريكة، والتمدّد على سجادة الحجرة، استأذن جاره بالخروج من بيته، على وعدٍ بتكرار الزيارة كلّما سنحت له الفرصة.. الجار مشغول برفع الجدران، وفتح الأنفاق، وهو بدوره.. مشغول بتقصّي كهف سدرين.

غادر شامان جاره مندهشاً من حفاوته وترحيبه، ناسياً الحاجة التي دفعته لزيارته.. لم يستعر خيطاً ولا إبرة، لم يطلب من سيّدة البيت غسل عباءاته.

أحزنه ما حدث، وقف برهة على الطريق الصاعدة بين المضافة وبيت الجار، السماء صافية، مزروعة بنجوم تلتمع كالمرايا، السكون يخيّم على أحياء سدرين، لا يُسمع صوت إلاّ لثعالب مسعورة، اعتادت العواء في الغابة بعد غروب الشمس.. لم تستطع تأملات شامان أن تُذهب بالقلق المستولي على مشاعره، يسأل نفسه:

"هل يعود إلى بيت جاره، هل يدّق باب جار آخر؟" تتزاحم في رأسه أفكار كثيرة، تعود رغباته لتصطدم بحاجز خجله، عزم أخيراً على دخول المضافة، والخضوع لسلطان النوم.. قائلاً في نفسه:

"لن تمنعني قطعة قماش ممزّقة من الخروج المبكر بحثاً عن كهف سدرين"
تفقّد أشياءه، وجد كلّ شيء في مكانه إلاّ ثيابه.
دهش الشاب.. للمرّة الأولى بعد قدومه إلى سدرين يعبث أحد بأشيائه، رفع دفتراً، التقط قلماً، كتب معبّراً عن حزنه لما حصل.
"غداً.. حين ألتقي البائع الجوّال، سأطلب منه إحضار ثياباً بديلة" قال في نفسه، بعد أن أعاد الدفتر والقلم إلى مكانهما.
وقف برهةً وسط المضافة، بزغت صورتها في مخيّلته، كانت إطلالتها رائعةً، تعابير وجهها، عيناها، قامتها، أصابعها، شعرها، عنقها، كلّ ما فيها طافح بالأنوثة، جمال أخّاذ.. أكبر بكثير ممّا تحتمله مشاعره.
سأل نفسه:
"ألم تقع عينا البائع على هذه الجوهرة الثمينة، ما أتعسك يا شامان، جئت تبحث عن كهف، بينما الآخرون في رغدٍ ونعيم.. أيّ أمٍ أنت يا أمّ شامان؟!"

أم هي الحقيقة؟!

"كيف أجعل من وحيدي شجاعاً في زمن كثر فيه من يدّعون الشجاعة، وهم من تجليّاتها براء، الكرم، الصدق، الوفاء، الأمانة، الحبّ ، التضحية، الإخلاص، التسامح، العفو، كلّ هذه الفضائل تنضوي تحت عنوان الشجاعة، وسواها الكثير. سؤال كبير، كان عصيّاً على الإجابة، حتّى وقت اتخاذي القرار. الآن أنحني لأمومتي، لانتصاري على وجيب قلبي، وأعلن هزيمة الخداع. أمّا أنت أيّتها الريح المجنونة، تكسّري فوق رمال موغلة في همجيّتها، وانمسخي في حجرات الجفاء، حيث لا ظلّ سوى ظلّك، ولا صفير غير صفيرك."

بعد انتهائي من خطّ رسالتي القصيرة على دفتر أيامي، أغمضت عينيّ كي لا أرى جداول أمومتي تفلت من محاجرها.. هل أنا في حلم، أم هي الحقيقة! سأمسك قلبي عن التوجّع، ومفاصلي عن الرجفان، وأتدثّر بالأمل الكبير، فهو كفيل بمواجهة من لا يروق لهم صنيعي.

***

قال (شكسبير):

"من الناس من يولد عظيماً،

ومنهم من يصنع العظمة،

ومنهم من تقتحم العظمة بابه."

مَن يغبطُ من؟

من يَبكي مَن؟

مَن يرثي مَن ؟

القطيعُ في ذمّة الريح

الفجرُ يعتمر الوجع

في عينيّ الكلب بحّة مستهترة

لا عاصم لعصا الراعي سوى الذاكرة

أيّها المؤتمن على إيقاع الفجر، لا تتنصّل!

لا جدوى من كان

لا جدوى من كيف

لا جدوى من ليس !

كلّ الأسئلة مفتوحة

كلّها مغلقة !

هي عادة الرعيان

قرّر شامان ألاّ يسلك الدروب الشائكة الوعرة، فإذا اضطرّته التضاريس على تغيير طريقه، حزم الأمر أن يتجاوزها بكثير من الحيطة والحذر، كي لا يعرّض نفسه للمصاعب والأخطار، فتبقي عباءته نظيفة، محميّة من الأشواك، ورؤوس الصخور الحادّة، التي تفعل فيها ما يفعله مقصّ الخيّاط. وجد من غير اللائق إشغال الفتاة الشقراء ذات الضفيرتين في رتق عباءاته، وغسلها وكيّها، ألا يكفي تأخّره في تقديم الشكر لها على ما بذلته من جهد واهتمام.. بشكل خاص، حينما صنعت له مفاجأة ذلك المساء، لما دسّت له الثياب النظيفة، وغطاء الرأس تحت اللحاف.

يستوقفه رنين أجراس وهو في طريق عودته إلى القرية، ينعطف مستطلعاً مصدره، يرى راعياً سارحاً بقطيعه، ذراعه تمسك بالعصا، وبين أصابع يده الأخرى سيجارة مازالت مشتعلة، متأمّلاً.. وهو ينفث دخانها في مهبّ نسيم غربي عليل.

ما إن اقتربا من بعضهما حتّى بادر شامان بالتحيّة، ردّ الراعي تحيّته بأحسن منها، طلب منه الجلوس فوق صخرة محاطة بالأعشاب، قدّم له كيساً محشوّاً بتبغ أشقر مفروم على الناعم – هي عادة الرعيان – يقدّمون لضيوفهم شيئاً ممّا يكون بين أيديهم من خيرات الطبيعة.

لم يسأل الراعي الغريب إذا كان مدخّناً.. طبعاً، هو ابن قرية سدرين، أهل سدرين يقدّمون الطعام والشراب للزائرين، موائدهم عامرة على

الدوام، فمن غير المستحبّ في عاداتهم سؤال الضيف، إذا كان راغباً في طعام وشراب، أو كان غير راغب.

"مضى وقت طويل على قدومي إلى سدرين، لم أزل في ضيافة أهلها الأكارم.. يقول الجميع لي – حللت أهلاً، ووطئت سهلاً – لم يسألني أحد منهم، من أين جئت، ولا ماذا تريد، أو متى سترحل، لم تختلف حفاوتهم بي يوماً عن يوم" قال شامان في نفسه بعد أن انتهى من لفّ السيجارة بأصابع مرتجفة لم تتعرّض من قبل لمثل هكذا اختبار، قدّمها للراعي، معتذراً عن عدم رغبته في تدخينها، شكره الراعي، وأشعلها بسرور.

"هل تريد منّي شرح ما أجهله؟!" سأل الراعي.

دهش شامان ممّا سمعه من الراعي، وقبل أن ينبس ببنت شفة، استطرد الراعي: "كل من جاء إلى سدرين، لم يأت بمحض المصادفة، بل جاء لتحقيق هدف، كان قد وضعه نصب عينيه، أحترم الساعي من أجل هدفه، أحبّ المعاملة بالمثل، أسعى إلى تحقيق أهدافي، ما أتمنّاه لك.. ألاّ تغدو قليل الحظ مثلي – على حدّ زعمهم – أنّني لست محظوظاً.

يكثرون من الحديث عن الحظ، وأيضاً عن النجوم، أو ما يسمونها الأبراج.. قلت لهم مراراً، لا أؤمن بما تعتقدون، أيعقل أن تتحكم هذه الأجرام بمصائرنا؟!

أنظر من فضلك إلى هذه النملة، هل غيّر مرور قطيعي وكلبي من مسارها؟!

يسخرون منّي، يسألونني: "أتريد تغييّر مفاهيمنا؟ اسرح بقطيعك، دعنا أيّها الراعي ننتظر حظوظنا!" تصوّر أيّها الغريب، أسرح بأغنامهم منذ الصباح، حتّى ما فبل غروب الشمس بقليل، أحرسها من اللصوص والذئاب. تتكاثر، يحلبونها، يجزّون صوفها، يتاجرون بروثها. يؤمنون بأن ما يأتيهم من رزق هو نصيبهم من الحظّ المقدّر لهم، كما لو أنّ أغنامهم تسرح وحدها، وتعرف أين الماء و الكلأ.

المؤسف.. لو تأخر أحدهم في نومه، ولم يُلحِق نعاجَه بالقطيع، أسرع يقذفني بوابل من الشتائم في حضوري وغيابي.. هل أدعوه حظاً ما ينالني من اولئك الأشرار من شتم وتحقير، لا أسمح لنفسي بسؤالك عن هدفك، كي لا تذهب وتقول: " في سدرين من هو فضولي!"

اسمع! بودّي أن أخبرك.. "في كلّ صباح، أضعُ هدفاً أمام عينيّ، أحمد خالقي على أنّني لم أحقّق هدفي كاملاً، يحدث ما لا أتوقّعه، أمرٌ ينغّص عليّ، يحول دون تحقيق كامل ما أصبو إليه، لم أُطْلِع أحداً من أهل سدرين على حقيقة ما يحدث.

لست بحاجة إلى إشغال بال أحد، وحده قطيعي من يسمع أغاني، وحدي من يفهم لغة كلبي، لكنّ أملي يتجدّد كلّ صباح، بأنّني سأصل أخيراً إلى تلك البقعة الخضراء، التي لم يصل إليها قطيعي بعد" وهزّ برأسه!

ليس كلّ نابح بغالب

احتار شامان في فهم مقاصد الراعي، أهي دعوة إليه، كي يسعى جاهداً في سبيل تحقيق هدفه، أم هي دعوة إلى الزهد في ما هو قادم من أجله، أم أنّ ما تحدّث به من تجريح بأهل سدرين ما هو سوى اختبار ساذج لإخلاصه لأهلها!؟

لكنّه أراد أن يصيخ السمع، ويعير الراعي جلّ انتباهه، كي يستطرد في حديث أعجبه، بينما كان واقفاً بجوار صخرة عالية، تحتضن دكّة معشوشبة في أسفل الرابية: "يتعلّق الأمر بصدق نواياك، اسمع يا ضيفنا من فضلك، مضى لي أكثر من ثلاثين عاماً، أسرح بقطعان سدرين، والقرى المجاورة، مصطحباً عصاي وكلبي، لا أخفيك سرّاً بأنّ استمراري في ما لا أحسد عليه من عمل، لم يرق للكثيرين من مشاغبي الجبل المتصارعين على مآربهم، كنت أتغلب عليهم في كلّ مبارزة، لا تفهم ممّا قلته لك.. أنّهم بارزوني عزّلاً، وبارزتهم مسلّحا، أبداً.. كانوا يبارزونني بعصيّهم وبمؤازرة كلابهم على الرغم من أنّني لم أميّز بين نعجة من نعاجهم وأخرى. قال لهم الرجل الطيّب: "ليس كلّ نابحٍ بغالب، ولا كلّ عود بعصا" ما كنت لأتغلّب عليهم، لولا إيماني الكبير بحكمتي وحسن تصرّفي، فكلّما ارتفع نباح كلبي واستعر، كنت أستعيض عنه بآخر، الحقيقة أنّك لن تستوعب تماماً ما أعنيه، أنت بعد، لم تجرّب أن تكون راعيّاً، ربّما تسعى كي تكون راعيّاً في أقرب وقت ممكن.. ولكن شتّان ما

بين الهدفين!

أنت ترغب في العودة قويّاً صارماً كي تتغلّب على ضعفك، فتصبح شيخاً للقبيلة من دون منازع، طبعاً هذا طموحك، أمّا طموحي فلا يتعدّى بقعة يسرح فيها قطيعي، الذي أحرص على ألاّ يستبيحه، أو يختطفه منّي أحد، لذلك تراني لا أُليح أبداً على قطيعي بعصا، سبق أن يبست بين أصابع شخص سواي، أو سبق وقد ألاح بها راع آخر على قطيعه" استطرد الراعي: "في النهار أبتعد عن جاذبية اولئك المداهنين المرائين تاركاً لهم الأسواق، الأموال.. العقارات.. الأحساب.. الأنساب.. الكراسي.. التيجان.. النياشين.. الميداليّات.. فلا أشكّل خطراً على رغباتهم، وشهواتهم التي لا تقف عند حدٍّ، فلا يفكّر أحد منهم بملاحقتي، أو بمراقبتي.. هم مطمئنون، تماماً على راعيهم ساكن القفار، والغابات، والمراعي، معتقدين أنّ اليوم الذي أغدو فيه رقماً من مجموع عديد قطعانهم، آتٍ لا محالة، لكن من غير صوف، أو وبر.. من دون ذيل، أو قرنين، كنت أريد أن أقول لهم كلاماً لم يقله لهم أحد، لكنّ طبولهم كانت تستفزّ خلايا حسّاسة في رأسي، وعطاساً في رئتيّ، ودموعاً في عيني، فلا أغدو قادراً على الصمود، أو الكلام.. تضمّني أعشاب جبل شان إلى لهفتها، تروق لي الأنسام، يغسلني الضوء، فأزهد في مدائحهم، وقصورهم، وأفراحهم، أمام هذا الكرَم ، الذي يحيطني به سعيي إلى خدمة قطيعي.

كلّ هذا لا يمنعني من متابعة هوايتي، التي أضحت جزءاً منّي، فقد كنت مولعاً باقتطاع العصي من الغابة، أجمعها نهاراً، أعالجها في الليل، ليتك تعلم أيّها الضيف، كم هو ليل الراعي طويل، وكم هي موجعة معاناته!"

أيقن شامان أنّه لا يحاور راعياً، بل يحاور رجلاً خَبِرَ الحياة، مؤكّداً له صحة يقينه، ما شاهده من بريق يلمع في عينيه، وما أثارته عباراته الرصينة من تساؤلات جمّة لديه!

"ماذا تقصد؟!" سأل شامان.

هزّ الراعي رأسه ثانيةً، أمعن النظر في وجه الشاب المرتبك.

"لا تحزن يا سيدي ولا تخف! في الجبل كهوف كثيرة، في كلّ بوم جديد يزداد عددها، الآن! لا تسألني لماذا، وكيف، يقولون لك:

"ستعثر على كهفك المنشود لو امتلكت الصبر والإرادة الصارمة – بدوري – كما اعتدت سأقتطع عصا أخرى، أضمّها إلى أخواتها، وكما ينبغي التحق بقطيعي".

"لكنّني كلّما اقتربت من كهف من كهوفكم هذه، يتراءى لي رجل طويل القامة، عريض المنكبين، يرمي مدخل الكهف بشيء لا أعرف ماهيّته، فلا أعود أعثر على مدخله، ولا ألتقي الرجل، حيّرني أمره، أكاد لا أصدّق عينيّ، رحت أسأل نفسي، هل أنا في حلم، أم أنا في حقيقة؟!"

اشتد نباح الكلب، غدا الشعور بالأمان صعباً، بينما اتّحد القطيع قبل أن يتوارى خلف التلال، كغيمة شاردة تحدّث نفسها قبل أن تلتقط أنفاسها فوق الغاية.

في ذمّة أمس

استيقظ شامان نشيطاً، خرج من المضافة قبل أن يتناول طعام الإفطار رغبة منه في لقاء راعي القرية ذاك الذي أدهشه أمس بحديثه.

"أين الياقوتة ؟!" سأل نفسه.

عند وداعه لأمّه، كانت قد زوّدته بياقوتة مدهشة، ودعاء مكتوب، لا يعملان إلاّ عندما يكون بعيداً عنها.

احتفظ شامان بالياقوتة، وما لبث أن حفظ الدعاء عن ظهر قلب.

قالت له مودّعة: "اجعل يقينك ثابتاً بياقوتتي ودعائي، إذا استولى عليك التعب، اقبض على الياقوتة، اقرأ دعائي سبع مرّات، يطمئنّ قلبك، وتتغلّب على متاعبك!

أمّا إذا داهمك خطر كبير، فاقبض على الياقوتة، واقرأ دعائي واحداً وعشرين مرّة، تقوى عزيمتك، تُريك الخطر أكبر ممّا تعتقد، تعدّ له العدّة، فلا تزهد به، أو تحتقره، فتعطيه فرصة التغلّب عليك، واستطردت الأمّ: "احبس دموعك وأنت تواجه الباكين! كن قويّاً في حضور الوجع والموت، لا تنظر إلى الوراء، حذار أن تظنّ بي الظنون، ياقوتتي ودعائي لا يعملان إلّا في بلاد الغربة، أمّك بانتظارك!"

أدخل يدَه في جيبه، أخرجَ الياقوتة، انتزعها من كيسها الحريري، أحكم عليها قبضته، أعاد الكيس إلى جيبه، وشرع بقراءة الدعاء.

دهش شامان لما شعر بالاطمئنان، وبامتلاء جسده حيويّة، قبض على

الياقوتة، وجّهها نحو عين الشمس المشرقة من خلف التلال، مراقبا انعكاس الأشعة على خاصرة الجبل المقابل – هكذا فعل إبّان المراهقة، حينما كان يتتبّع (شاندرا) لكنّ ياقوتة أمّه ودعاءها يفعلان اليوم أكثر ممّا كان يتوقّع منهما فعله، وكذلك شال حبيبته شاندرا.

"كيف عرفت أمّي ما أخفيه في صدري، لو لم تبح شاندرا بمكنونات قلبها، وما يضطرم في صدرها من حبٍّ وهيام ؟!"يسأل نفسه.

هل كان حبّه لشاندرا أضعف من أن يمنعه من المجيء إلى سدرين، أم كان خجله من معلّمه هو الذي منعه من التضحية في سبيل الحب، هل كان ليستمر في ملازمته لولا تعلّقه الشديد بشاندرا، هو ليس إلاّ واحداً من تلامذته، هل يعني أنّ كلّ واحد منهم، كان قد أُغرم بشاندرا، ربّما كان لشاندرا فضل كبير في زيارة الفتيان لأبيها، ألم يكن من الأفضل لشامان لو بقي في (وادي المروج) يؤنس وحدة أمّه، المشكلة عند الأم، أبناء عمومته لم يؤذوه في شيء، لم يؤذوا أباه ،لكنّها المجازفة بالأغلى للحصول على الأفضل، وبلوغ القمّة.

ذات يوم قال لها زوجها:

"يصبح شامان وريثاً لمعلّمه، هو أكثر ذكاءً من جميع أقرانه، سيقصده طلاب العلم والأدب، وليس له مكان بين الساسة، أولئك يحاربهم الغريب، يحسدهم القريب، يعتب عليهم الأولاد، والأحفاد، تنالهم ألسنة العباد، فإن سمعوا.. سمعوا بآذان الناس، وإن رأوا.. رأوا بعيون الناس، ليس تاجهم بعادل، ولا من اطمأن إلى سيوفهم بعاقل. لكن طريق العلم

طويلة.. شاقّة، تحتاج إلى صبر وعزيمة وصرامة، انظري يا امرأة كيف نزرع في وادينا النخيل، لمن نزرعه، ومتى تُجنى الثمر!"

هي ذكريات تراود مخيّلته، لكن.. لماذا قال له احذر الوقوع في غرام شاندرا، هي ابنة معلّمك، الرجل واثق بك، تدخل داره متّى شئت، تخرج منها متى تشاء.

لا فرق بين شاندرا وأختك، لماذا قال لي أبي– أختي – هل كان لي أخت، قال ذلك على سبيل المثال. يعني أنّ أبي أعطى الأمر صفة التحريم، لكنّني خنت أبي.. أيّة خيانة! أحببت محرّماً، لكنّكما لم ترضعا من صدر أمٍ واحدة، ولم تجتمعا على ثدي مرضعة. سألتُ أمّي، أدهشها سؤالي، هربت من الإجابة، خرجت.. ربّما ظنّت بي الظنون، ربّما لم تظن.. أيكون ذلك السؤال سبباً في قدومي إلى سدرين؟!"

أخرجَ شامان الياقوتة، قرأ الدعاء، بدا الأمر هيّناً.

"ابدأ من جديد، تجد الكهف، لا تيأس! ما جرى أمس، في ذمّة أمس، ليس في طالع اليوم" قال في نفسه.

ما أضيفه ليس إلاّ القليل

يومها أدهشني بهديّته، لعلّي لم أتوقّع منه هذه البادرة، قلت في داخلي "أبي كان محقّاً، لما زوّجني برجل فقير" كان صادقاً في عمله ومعاملته، وكان أيضاً وفيّاً.. كنت أخجل من سؤاله من تعبد؟ وكيف تتعبّد؟ لمن تتصدّق، وبماذا ومتى! ما رأيته يوماً يمارس الطقوس كما يمارسها الجميع، حتّى في حجّه كان مختلفاً.. ذات يوم سمعته يقول لابن عمّه: "القدير في ضميرنا الإنساني، فما علينا سوى أن نتصالح مع ضمائرنا معترفين لها بفضيلة المقدرة.. المقدرة على الارتقاء والسمو، لا التدنيّ والانحطاط."

وكنت اسمع ابن عمّه يضحك لما قال له: "إلى نهرنا المقدّس أحجّ مرّة في السنة، في الوقت الذي أكون فيه قريباً من ذاتي، التي أحجّ إليها مع كلّ شروق وغروب وصعود وهبوط واحتكام واحتلام، حتّى لتجدها تلبسني كما يلبس سيفٌ غمده."

أبي، لم يصحبني إلى النهر المقدّس، لكنّه زوّجني بمن أغتسل مئات المرّت بماء عينيه، كنت من العجب في غاية الاندهاش لما كان يحيطني بحزمة من نور بهيّ، يسيطر عليّ حتّى في غيابه.

ذات يوم، بينما كان منهمكاً في إنجاز سجّادة بين يديه، قال لامرأة تمسك مغزلاً بيدها: "لما ماتت أمّي، يبس الكلام على شفتيّ، ولما مات أبي سقط الجبل على ظهري، من لم يعش مع أخوة له لا يستطيع تعريف الحسد، الحروب ستظلّ تنهك العباد والبلاد، حتّى تحكم وتُقاد من قبل

الأمهات."

أخجلني.. الياقوتة ثمينة، وكان يومئذ بأمسّ الحاجة إلى أشياء خاصة، وأدوات لورشة صناعة السجّاد.. ولما وضعها على صدري قال لي: "ما أضيفه ليس إلاّ القليل إلى منجم الجواهر"

لو كنت أفهم لغة الطير!

يحرص شامان على عدم القراءة في النهار، فهو من جهة، لا يريد إضاعة فرص ثمينة تجمعه بالناس. ومن جهة أخرى، لا يريد إرهاق عينيه، ما دام لا يريحهما من القراءة في الليل، فقد اعتاد أهل سدرين رؤيته في كلّ صباح، كما ألفوه واحداً من أبنائهم، زرعاً دروب الجبل جيئة وذهابا، مستطلعاً الغابة والنهر، متسلقاً الهضاب والأكمات. يشرب من ينابيع الجبل العذبة.. يتفيّأ ظلال أشجاره.. يستنشق شذا أزهاره.

عند كلّ صباح، يتفقّد الياقوتة والشال، ويقرأ دعاء أمّه، حتّى لا يغيب دعاؤها عن ذاكرته حين تحدق به المخاطر، يخرج من باب إحدى المضافات واضعاً كفّه، تماماً فوق جهة القلب، ليلة أمس.. أمضاها مفكّراً بشاندرا، وكعادته في ساعة مبكّرة من الصباح ينحدر في طريق سدرين الشرقيّة المحفوفة بالنباتات والأشجار.

"لماذا لا أفعل شيئاً يبرهن عن محبّتي لجبل شان، لسدرين وأهلها، أليست سدرين وطني الثاني، أهلها أهلي، أفراحهم أفراحي، أتراحهم أتراحي، حتّى إذا ما تعرّضت أرضهم لخطر، أو أصابهم مكروه، أساندهم، أواسيهم، أدافع عنهم، وعن أرضهم بما امتلكه من محبّة وقوّة." قال في نفسه.

ما إن خطرت الفكرة بباله حتّى شمّر عن ساعديه، وراح يرفع الحجارة الصغيرة والكبيرة والحصيّات من وسط الطريق، يزيحها إلى الجانبين، ويزيل

ما يستطيع إزالته من أشواك، وأغصان خضراء ويابسة، سقطت عن ظهور الدواب العائدة من الغابة.. بهمّة قويّة تابع مسيره ماراً بصخرة مهيبة، اصطف أمامها رجال، وجرار، وأحصنة، وبغال.. تذكر نصيحة معلّمه:

"شامان.! لا تتعب من السؤال.. كن جريئاً كالأطفال، فهم أسرع من الكبار في اكتساب المعارف، لا يخجلون من التجربة، ولا يملّون تكرارها، الجبان لا يتعلم شيئاً، الأحمق يخسر كلّ شيء."

قال في نفسه:

"ينبغي عليّ احترام حرّيتي، والإصغاء إلى صوت عقلي، كما يجدر بي أن أصيخ السمع إلى أصوات جريئة وصادقة أبعد من صوت عقلي، وأتأمّل ما وراء ورائي! ماذا يحدث لو سألت الرجال، فأحصل على إجابة تخمد ما يضطرم في صدري من أسئلة أخرى. قد يقترح عليّ أحدهم سؤال آخر، وماذا يضير لو سألت، لا يقع شيئاً.. لكن!"

شامان يفضلّ التريّث قليلاً في طرح الأسئلة، معتقداً أن ما يدور في خلده من تساؤلات، يجب أن يتركها للوقت، لكنّ وقته محسوب عليه.

ما سبب اصطفاف الجرار على نسقين بجانب البغال؟

ماذا تحتويه الجرار المصفوفة؟

هل ينساق وراء ظنّه، ويعتقد بأن ما امتلأت به الجرار ليس إلاّ خمراً؟

أيُعمِل شكّه، ومن ثمّ يمضي إلى شأنه؟!

يقول في نفسه:

"لا تختلف الجرار التي أشاهدها في شيء عن الرؤوس المركبة على أجساد البشر.. هل بإمكاني معرفة ما في داخل كلّ رأس من رؤوس هؤلاء الرجال الواقفين بمحاذاة بغالهم، وأحصنتهم؟
سيكون من الخطأ القول.. هذا مجنون، والآخر عاقل، هذا شقي، وذاك منعم، هذا قاتل، وذاك ضحيّة، هذا متسامح، وذاك غدّار، أو حاقد!"
تذكر حديث معلّمه:
"حريّتك في طرح الأسئلة، لا تعني امتلاكك الحق في طرحها متى تشاء، السؤال يا (شامان) أشبه بالفاكهة لكلّ نوع منها شكله المميّز، وشروط إزهارٍ ونضوج"
لم يُطِل شامان التأمّل، ولم يُثِر وقوفه حفيظة أحد، من وراء الصخرة، تجيء نساء تحمل كل واحدة منهن دلوين. تقدّمن تباعاً، لتفرغن ما في الدلاء، استغرق العمل وقتاً طويلاً، لم يبرح الرجال المكان حتى أنهت النسوة أعمالهن، اصطففن بمحاذاة الصخرة المهيبة، رفع الرجال الجرار فوق سروج الدواب، ومن ثمّ امتطوا صهواتها مودّعين، عرف شامان أنّ قليلاً من الجرار لم يحظ بنصيب ممّا أفرغته النسوة، في حين حاصرته أسئلة شتّى، لم يكن يتوقع ولادتها:
"ماذا احتوت الجرار، التي لم تحظ بنصيب ممّا في دلاء النسوة؟!"
ما إن غادر الرجال المكان، وعادت النسوة من حيث جئن، حتّى بردت أطراف شامان، أحسّ بقشعريرة ترعى أوصاله. ليس أمامه من خيار سوى تسلّق الأكمة المقابلة، والالتحاق بالرجال الذين سبقوه.

يوم كان أبناء عمومته يتدرّبون على الفروسيّة، لم يكن باستطاعته التعبير عن كرهه لصليل السيوف، كان يغمض عينيه، كي لا يرى لمعانها تحت أشعة شمس محرقة، وقتئذٍ لم يستطع صمّ أذنيه.

هل يستجيب لنداء عقله، فيذهب وراء أسئلته، ملتحقاً بالرجال الذين سبقوه. أم يستجيب لنداء عاطفته، وهو يصيخ سمعه لموسيقى جديدة على أذنيه. لحظةَ انتابه حزن شديد، تغلّب عليه حيناً، باللجوء إلى الياقوتة والدعاء، وحيناً آخر بتأمّله الواعي لطبيعةٍ ساحرة، وإرهافه السمع لموسيقى النهر والشجر، ولتغريد العصافير، وهديل الحمائم. ما أروعها من ايقاعات تطلع مع الفجر، لترافقه في أمسياته إلى حيث يقيم!

إلاّ أنّ حرصه الشديد على معرفة مكان الكهف جعله قلقاً، فلا ينعم في إقامة، ولا يستقرّ له مقام، ينهض لاهثاً، باحثاً، يظنّه الناظر فاقداً لعزيز. يصادف في تجواله كثيراً من السيّاح والكشّافة، لا يسأل أحداً منهم عن موقع الكهف، وفي المقابل لم يسأله عن موقع الكهف أحد، فهل يكتفي بمعلومات عرفها قبل مجيئه، تقول إنّ حامي الكهوف المبجّل كان قد خصّ أهل سدرين بمعرفة موقع الكهف العظيم دون سواهم.

هل اعتادوا مشاكسته، أو أحبّوا ممازحته، ثم لا يلبثون أن يدهشوه بحفاوتهم، وطيب معشرهم!

"هل يفعلون ذلك مع سواي؟" يسأل نفسه.

آخرون، يفاجئونه بطرح أحاجي بعيدة جدّاً عن موضوع الكهف تثير في ذهنه تساؤلات محيّرة، أهل سدرين يشتغلون اليوم بعقولهم، أكثر ممّا

يشتغلون بعواطفهم، هم مدركون تماماً أن لا حامي لهم سوى الوعي، فهو الذي يوقف الانتشار السريع لهذه الكهوف، ويغلق ما ظهر، وما سيظهر.

سدرين، كانت أكثر أمناً عندما لم يكن فيها سوى كهف واحد، وهذه مهمّة كلّ واحد منهم، كما أنّها مهمّة البائع الجوال، الذي ما برح يتنقّل من كهف إلى آخر بصحبة خرزاته.

شامان، لم يأت إلى سدرين، ليأخذ دروساً في الفلسفة، والمنطق، والعلوم الرياضيّة، ولا ليخوض في مسائل لا تنقله من ضفّة إلى أخرى.

لما قال له المعلّم:

"واحد زائد واحد، يساوي اثنين" أعرب عن دهشته.. كلّ التلاميذ صدّقوا ذلك إلاّ شامان، يرهن لمعلّمه أنّ لا شيء يساوي ذات الشيء، ولا يحلّ واحد بنفس الدرجة مكان أحد، كلّ متشابهٍ قبيح"

في أكثر من مناسبة، قال له المعلّم:

"الرجال أكثر محافظة على الأسرار من النساء، إلاّ في العلاقات الغرامية!"

لم يسأل أحداً في سدرين، إلاّ وأقصاه عن الكهف، هو لم يسأل نساءً. "الحبّ فاضحٌ للأسرار." يقول في نفسه.

هل سيبقى الأمر معلّقاً، بينما لا يرحمه الوقت، اشتاق إلى أمّه، إلى شاندرا.. من يدري، هل مات معلّمه، أم لم يزل حيّاً، هل استمر التلاميذ في التدفّق إلى منزله؟

أليس متوقّعاً أن تكون شاندرا قد أحبّت سواه؟

يقول في داخله" هم جبناء يخشون جميعاً الوقوع في حبّ الفتاة!"

الشابّان الّلذان بقيا يتسامران حتّى منتصف الليل بجوار المضافة، أجّجا نار الأشواق في صدره، حكاية حبّ كلّ واحد منهما تختلف تماماً عن حكايته، العشاق في سدرين يتواعدون قرب الينابيع العذبة، وعلى ضفّتي النهر، هناك في أعماق الغابة، كالفراشات والطيور على مرأى من أمم الورد والعشب والنمل والنحل، وأشهادٍ أُخَر صادقين.. هناك تتّحد الطبيعة مع العشاق لتشكّل دروعاً خضراء، زرقاء، لازوردية.. تأخذهم إليها، ساكبةً عطرها، عازفة موسيقاها، مخفّفة من أوجاعهم على مسمعٍ من أمّهات الظلّ والنّدى.

انتبه شامان إلى مرور نسر كان قد حلّق فوق شجرة بلّوط قبل أن يتّخذ مكاناً له فوق الأغصان العالية.

قال في نفسه: "لو كنت أفهم لغة الطير لسألت هذا النسر عن مكان كهف سدرين، فأصْدَقني القول أكثر من هؤلاء الذين لم أفِد منهم في شيء."

واستطرد في داخله قائلاً: "لماذا تكون معرفة كهف سدرين سرّاً من الأسرار، أليس من حقّ أهل سدرين التفاخر بأسرارهم، ألم تجعلهم أقوياء، كرماء، يهابهم العدو، ويحترمهم الجار، لكن.. من يحرس هذا الكهف!؟ وأنا لم أمرّ بحارس، ولا بخادم ،كلّ ما مررت به من تجاويف، لم يكن كهوفاً، للكهف مواصفات لا يختلف اثنان في شرحها."

"لا تدخل في كهف، إذا لم يتّضح لك مخرجه!"

ضحك شامان من نصيحة البائع، حتّى كاد ينقلب على قفاه:

"كيف بإمكانك تبيّن مخرجه ، إن لم تدخله؟"

هزّ البائع برأسه، ودّع شامان قائلاً:

"سنلتقي في العام القادم، لكنّك ستدفع الثمن باهظاً، إن لم يكن لديك معول وإزميل ومطرقة!"

"ثمن ماذا؟!"

"ثمن عنادك، وكثرة كلامك!"

بينما ظلّ شامان واقفاً.. ابتعد البائع، صاح بأعلى صوته:

"كيف عرفت أنّني مقيم حتّى العام القادم؟!"

قبض البائع على كيس خرزاته، ومضى في حال سبيله عالماً بمخالفته لتعليمات المرأة التي حذرته من لقاء شامان.

لكنّ شامان أراد أن ينتقم لنفسه، ويسخر من البائع الذي كان في يوم من الأيام حريصاً للقائه، والتحدّث إليه، فصاح به قائلاً:

"أليس طمعك هو ما جعلك تتخلّى عن سلّتك؟!"

أجابه البائع دون التفاتة:

"ربّما تخلّيت عنها في المكان الذي أضعت فيه شالك وياقوتتك"

أليس العقل سجناً ؟

لم يقترب شامان كثيراً من الحطاب المنهمك في عمله، كان بودّه لو يصافحه، لو يمسح العرق عن جبينه. لكنّ المسافة الفاصلة بينهما كانت حائلة دون معرفته مقصد الحطاب، هل هو جعل الطريق أكثر سهولة لمرور العابرين، أم تقليم أشجارها الكثيفة، لتبدو أكثر جمالاً وروعة.. أو لتكون مهبطاً لطائرات تجسُّسيّة.. بدّد وقته في الاستماع لموسيقى المنجل، راح يراقب حطّاباً يقوم بحركات مثيرة.

تذكّر أنّ ما ينبغي عليه فعله ليس سوى الّلحاق بالقافلة، حثّ الخطى، قرّر عدم الدخول في وسط الغابة، لتفادي أيّة عرقلة وانشغال.

لا بد من الدوران حول محيط الغابة إذاً، هو على يقين من أنه سيدرك القافلة مهما بلغ منه التعب.

لم تغادر سمعه موسيقى منجل الحطّاب، حتّى شربته موسيقى حطّاب آخر، كان قد استوقفه صوت منشاره، وملأت ناظريه حركاته المفعمة بالحيويّة والنشاط، لما بدا لناظريه منشغلاً في تقليم الأشجار، شجرة تلو شجرة، ابتداءً بأسفلها، انتهاءً بقمّتها، كعازف ينحني فوق كمانه مشكّلاً قناطر مدهشة مع خشبة المسرح.. هل كان ينضو عن بقعة من أرض الغابة قميصها الشائك، لاستقبال إشارات مرسلة من أقطار السماء، أو لاستبدال قميصٍ بآخر.

تجتذب شامان الألحان الجريئة، فتأخذه إلى مدارات بعيدة، وتحمله فوق

إيقاعاتها الساحرة، لكنّه محكوم بوقت مشتعلٍ، كنهر جبلي يمضي سريعاً.
هو ذا البحر يلبس قميص الغسق، ليعود الصيّادون فرحين مطمئنين فوق قواربهم المثقلة بشباكهم الحبلى بخيراته المدهشة، بينما ترسم نوارس قادمة من الشمال أشكالاً أخّاذة على جبين المدى البعيد.
"تقدّم يا شامان، تجاوز الغابة.. تسلّق الأكمة، اقفز فوق الساقية.. ليست الموسيقى التي تسمعها سوى مقاطع قصيرة لألحان أكثر حيويّة ونقاوة." قال في داخله.
لم يكد يغادر مكان عمل الحطّاب حتّى تناهى إلى سمعه رنين أجراس قادم من وراء التلال المحيطة بالغابة.. استدار في كل الاتجاهات، لم ير شيئاً، تسلّق القمّة، شاهد رجلاً يلوّح بكلتا يديه في البعيد، هل كان يدعوه لزيارته؟
بيده، لوّح هو الآخر، لم يفهم أيّ منهما ماذا يريد منه الآخر، ابتعد شامان عن القرية، بدأ يشعر بالضياع، قافزاً فوق الصخور ذات الألسنة الحادّة، والتجاويف العميقة. قال في نفسه:
"هنا.. كان البحر. وكانت موسيقى ماء. لكي يكون المرء سعيداً، ينبغي أن يفتش عن موسيقاه، وبين نفسه ونفسه يغني أغنيته اليتيمة."
رغب في الجلوس وراء صخرة بيضاء، رمى بنفسه فوق بقعة معشوشبة من الأرض، تمنّى لو يبزغ كنرجس بريّ من كعب حجر. لكن.. يجب أن يلتحق برجال يُفرغون الجرار، أو بنسوة ينهضن في الفجر، ليملأن الجرار المنتظرة.

لم يـر مغـارة، وقطعانـاً، وخيـولاً، لم يشـتمّ رائحـة خـلٍ أو نبيـذ.. نـادى بأعلى صوته، وحده الراعي يفهمه، لكنّه الضياء، ينتحب تحت شرفات المساء، والراعي وأغنامه يتماهون مع إيقاع هذا النحيب.

هجم الليل من فوق خيوله المروّضة.. على أرض بيدر فسيح في خاصرة الغابة، كان الحطّابون يوقدون نارهم، تحلّقوا حولها مطلقين أناشيد الكماة المنتصرين، مشكّلين حلقات ضيّقة، ضاربين الأرض بأكعابهم، قافزين في الهواء.

أفسح الراعي مكاناً لشامانَ بجانبه، قال له بحزن:

"حـذار أن تتعـب نفسـك في معرفـةِ مـا في الجـرار، لكـلّ امـرئ جـرّة في داخلها ما لا يبوح بماهيّته لأحد!"

سأل شامان:

"ألدى المجانين شيء من هذا!"

"مطلقاً لـيس لـديهم.. المجـانين يبوحـون بمـا في أنفسـهم، فأنـت لا تفهـم شـيفرتهم إلاّ بقـدر قربـك مـنهم، أيّ بمقـدار مـا أنـت حـرٌّ، ألـيس العقـلُ سجناً، والجنون حريّة ؟!"

"أكاد لا أفهم مرماك!"

"أعلم تماماً أنّ الأمر صعب عليك، سأحاول تبسيطه، حتى لا يتبادر إلى ذهنك أنني أكتم عنك شيئاً"

"معـاذ الله أن أفكـر بهـذا، أنـت مـن اهتـم بي أكثـر مـن كـلّ الـذين مـررت بهم، وتحدّثت إليهم، بالله عليك! كيف أسمح لنفسي باقتراف شيء من

هذا القبيل!"

للتوّ.. أخرج شامان الياقوتة، قرأ الدعاء مرّاتٍ سبعاً.. قائلاً في نفسه:

"هدية الأم لا تضيع، ياقوتتي، شالي، لن يضيعا أبداً، لماذا التنبّؤ؟ لماذا المزاح؟ سأسامح من أشاع بأنّني أضعتهما"

استطرد الراعي:

"لا يهمّني، لا يهمّني. سيّان عندي، ظننت بي الظنون، أم لم تظنّ، لم أعتَدْ كتمانَ شيء، لا أملك شيئاً يمكن أن يصبح حجّة عليّ، ولا أدعُ مجالاً لأحدٍ كي يودِعني سرّه، أخاف الموت، وأضحك منه"

قال شامان:

"كنت أغبط نفسي على قراءتي لكتب كثيرة، وظفَري بمباركة معلّمي على ما حفظته من سير شعوب قطنوا صحارى وسواحل وجزر، اليوم.. أجد نفسي عاجزاً عن فهم ما ترمي إليه – خشية الموت، والضحك منه! –"

"كلّ من شاهدتهم ينهبون الأرض نهباً في مسيرهم فوق هذا الجبل، يحزنونني، صلتي بهم أضعف من صلتي بك، فلا أكاد أتبيّن من منّا استولى بمشاعره على الآخر.

كيف حصل هذا، هل تسألني مختبِراً فاحصاً، أم تسألني عالماً متواضعاً، لتستوثق من صحة معارفك، أم تسألني جاهلاً بما تسأله!"

رفع شامان يده، لم تُخفَ على الراعي ما تعنيه حركته المفاجئة، قاطعه قائلاً:" لا تقسم أيّها الغريب، لا تكن ممّن يكثرون القَسَم في أحاديثهم،

لأنّهم أكثر كذباً من سواهم.. سأفترض أنّك تسأل للمعرفة، ليس إلاّ!"
"قل من فضلك! لماذا تخشى الموت؟"
"أحبّ أغنامي، فأخشاه نهاراً، ضاحكاً منه ليلاً"
"ليس للموت وقت معلوم، فهل تخشاه غائباً، وتضحك منه حاضراً؟!"
"أنت لم تفهمني تماماً، هل هناك من يحصي كرّات الموت، أو يعلم بأوقاتها.. ليته يجيء دائماً في الليل، لما خشيت على أغنامي، قنمت مطمئناً قرير العين، فلا أرى نعجة واحدة تموت أمام عينيّ، وأنا غير قادر على منع المعتدي من الاعتداء عليها، إن لم يكن بعصاي، فبأنيابي.. لكنّها أمنيات. الموت هو أكثر ظواهر الحياة سخرية بالأمنيات، إنّه لا يستحي من مضيفه، مثل كثير من المدخنين، اولئك الذين لا يخجلون من نفث دخان لفافاتهم في وجوهنا، لهذا تراني أخشاه في النهار، بينما يكون القطيع تحت حراستي ، وأضحك منه ليلاً حينما تصبح الأغنام في حظائر أصحابها وقتئذ، لا يكون له عندي من شيء أخشى عليه، ستقول إنّ من يُسمعك هذا الكلام ليس سوى مجنون ذهبت العزلة بعقله، أليس هكذا؟!"
ران صمت طويل، قطعه نباح مفاجئ لكلب شرس، شغل المكان بسعيره، وأجفل الأغنام السارحة فوق المروج الخضراء.
"اسكت يا رفيقي، أهكذا تقطع عليّ حديثي، أنت لم تتعلّم شيئاً من الأغنام، تبصّر! إنها تضع رؤوسها بين الأعشاب، لا ترفعها إلاّ حينما أليح لها بعصاي، أم أنّك تغار من ثرثرتي التي تمنعني من الاهتمام بك!"

تابع الراعي حديثه مع شامان، الذي بدا مندهشاً من خطابه لكلبه، فقال:

"اسمع أيّها الشاب! في رأس كلٍّ منّا مجنون، يرافق صاحبه في يقظته ونومه، وفي مكوثه وترحاله، يتجلّى بمظاهر تختلف لدى كلّ امرئ من حيث القوّة والضعف، والطبع والتطبّع، وصفات أخرى"

"كيف، ومتى يكون المرء قريباً من مجنونه، ومتى، وكيف يكون بعيداً عنه، قل لي بربك!"

"المجانين لا تحكمهم أوقات وأبعاد. تللك التي تحكمنا، وتتحكّم بنا، كلّما أجدت قراءة شيفرة مجنونك، وفهمت لغته، اقتربت كثيراً منه، والتصقت أكثر به.. لعلّك لا تصدّقني، أهل هذه القرية لم يكونوا أصحّاء، هذا إذا سلّمنا بانّ... وتوقّف عن الكلام.

"تدهشني يا رجل!"

"ما المدهش في الأمر، ألاّ تؤمن بالحسد، الوطن جسد وروح .. يحدث أن يُحسد الجسد، فتصيب شرارته منه مكاناً، يصعب على الروح إنقاذ الجزء المصاب إلاّ بتعاون باقي أجزائه"

يتمنّىُ شامان لو لديه وقت كافٍ لسؤال الراعي عن أحوال مجنونه، لكنّه متعب، وصل به الحزن إلى مشارف الخيبة. إلاّ أنّ الطّاسة النحاسيّة، التي قدّمتها له الفتاة الشقراء، وكلمات الراعي- تلك- أعادت اللون إلى وجنتيه، والبريق إلى عينيه. أراد أن يشكر الفتاة على صنيعها، لكنّ مجنونها، كان مستيقظاً، أمّا مجنونه فكان مرهقاً، ولا سبيل وقتئذٍ، لالتقاء

مجنونيهما.

تذكّر ما جرى له من تهكّم البائع ليلة أمس، تفقّد الجوهرة والشال فلم يجدهما، منذ لحظات، كلّ شيء.. كان على ما يرام، هو على يقين من أنّ سدرين قرية آمنة، يحميها الكهف، وليست المرّة الوحيدة الّتي يتفقد فيها جوهرته وشاله، حدث أن نسيهما مرّات عديدة في المضافة، وعاد ليجدهما بحالتهما الجيدة.. اليوم، عثوره على الجوهرة يجعله عاجزاً عن تقديم الشكر والعرفان بالجميل للفتاة، التي كانت تتوقّع منه كلمة إطراء لم تسمعها.

بتؤدة.. عاد شامان إلى الراعي مستأذناً، رفع العصا من بين يديه، جلس القرفصاء، ثبّتها جيّداً في الطين، راح يفرك عليها بأصابعه، بينما كانت النار تضطرم في أغصان يابسة.. كان قد أشعلها أمامه، أخذه وهج الجمرات، طرب لأغانٍ لم يسمعها من قبل، ولم يفهم من كلماتها سوى القليل، قفز في الهواء مثل الحطّابين، أخذ من كل جرّة قطرة واحدة، مزجها مع أخواتها، مسح بها ساعديه ورأسه، أضاء مثلهم، مثل الحطاب، و الراعي، والفتاة الشقراء.

"يا للخيبة!" قال في نفسه.

من بقعة مضيئة في وسط الغابة، يخرج شيخ يتوكأ على ظلّه، يجلس الجميع أمامه منصتين: "يحكى أنّ أناساً، أضناهم السفر، سرق الخوفُ الكرى من عيونهم.. ذات عتمة.. مرّوا من هنا، رأوا قنديلاً مضاءً فوق صخرة عالية. تحلقوا حوله راغبين، استبدّ النعاس بعيونهم، تحررت قلوبهم

من الخوف، فناموا آمنين، وما أفاقوا حتى طلع فجر آخر.

غابت شمس نهار جديد، ولما يزل القنديل مضيئاً فوق الصخرة السوداء. أرادوا أن لا يكون لهم عمل يشغلهم عنه، فاختلفوا على نوع وقوده. ظلّ الاختلاف قائماً، وعلى امتداد رقعة البلدة، لم يستقرّوا على رأي مضيء.

ذات ليلة ظلماء، سطع نور الشعلة، تدافعوا بمناكبهم، تعاركوا بأيديهم، تزاحموا فوق الحجارة، يتسابقون لا إلى شيء، سوى إلى رمي القنديل، أدركوا بعد أن كسروا زجاجته أن قطرات الزيت التي اختلفوا حولها، كانت ترشح من عيونهم وصدورهم.. ولم ترَ قطرة واحدة تنزف من جرح القنديل البليغ.

لما استيقظ شامان مدّ يده ثانيةً إلى جهة القلب ليخرج الياقوتة، سيكون عتب (شاندرا) كبيراً! عند اللقاء سيقرأ لها قول افلاطون:

"الحبّ يخلق جميع الفنون، وهو ناشر السلام بين البشر" وقوله الآخر" الحبّ الحقيقي يرى النفس قبل الجسد"

أنـجولي

ما منعها البرد، ولا الحرّ من انتظاره في ظلّ الشجرة، التي كانا قد تقابلا بجوارها، هي مؤمنة بأن ما تقوم به ليس سوى فعل، يمليه عليها واجب احترام سدرين، والدفاع عنها.. لما كانت طفلة، لم تكن لتعي مفردات عبارات. كانت تردّدها ألسنة النساء في جلساتهن، سواء كانت عبارات امتداح ، أو تجريح، عبارة واحدة ظلّت ترنّ في أذنيها "أنت جميلة يا أنجولي" لم يقل لها أحد إنّها ستدفع باهظاً ثمن كونها جميلة، في الأيّام الأولى للحرب كانت تدافع عن رسالة الماجستير في التاريخ، لم تختر دراسة التاريخ بناء على رغبتها، هذا ما ظهر أمام اسمها في جداول القبول، ولم تكن لديها رغبة في البحث عن جامعة أخرى.

لمّا أعربت عن امتنانها لمدرّسيها في حفلة التخرّج ،كانت موضع احترام الحضور من أساتذة ومدعوّين: "مبروك.. أحرزت العلامة الأولى " أعلن رئيس القسم، وصفّق لها الجميع. " التاريخ كذبة، أفضّل لي معرفة تاريخ الشعوب من خلال تراث شعوبها، وأمثالهم الشعبيّة، ومن قراءتي لقصص وروايات كتّابها، ربّما تكون مصلحة الروائي في تسجيل الحقيقة أقلّ بكثير من مصلحة رجل السلطة، أو رجل الدين.

" أنجولي، تزوّجت سدرين!" بعضهم من كان يسيء فهمها، وآخرون تدهشهم مواقفها الجريئة، لولا وجود سدرين لم يكن هناك أرض، ولولا أهل سدرين لم يكن هناك شعب. كلّ حبّة تراب من تراب سدرين بركة،

وكلّ حصاة جوهرة. العالم قرية صغيرة، وفريتها الصغيرة سدرين هي العالم كلّه، في اليوم الذي كانت تتساقط فيه القنابل فوق جبل شان ، كانت أنجولي في رحم أمّها، ولما خرجت إلى الحياة، كانت تحملها أمّها جارية بين الألغام، لكنّها لم تحرمها من قصّة ما قبل النوم، أولئك الذين يقذفون جبل شان بالحمم، ويزرعون الخراب في بلداته الآمنة، لم تغنّي لهم أمهاتهم قبل النوم، ولم تحكي لهم جدّاتهم حكايات الفراشات والعصافير، وأولئك الذين باعوا تراب جبل شان وأهله، زيّنت لهم الخيانة، فاستقدموا عصابات القتل والسلب والاغتصاب، كانوا زاهدين بدماء أخوتهم، جاحدين بنعمة الأمن في جبل شان.. باعت خاتمها الذهبي، واشترت لها قيثارة، كان معلمها واثقاً من قدرتها على إحياء حفلة موسيقيّة يكون حاضراً فيها كلّ من الرئيس الأمريكي، والفرنسي، ورئيس وزراء بريطانيا.. كانت الأمّ فخورة بما سمعته من معلّم الموسيقى، لكنها خائفة من تعذّر حضور الرؤساء الثلاثة لما تلاقيه الحرب اليوغسلافيّة من اهتمامهم.. طبعاً كان حزنها على فقد أبيها وأمّها كبيراً.. هي ليست الوحيدة التي فقدت والديها في الحرب الدائرة، كثيرون فقدوا مثلها أهلهم، لم تعد للموت رهبته، ولم تعد تشكّل طرق القتل والتعذيب والاختطاف المبتكرة أيّة دهشة لمن يسمع بها، أو يشاهدها حقيقة. أو على شاشة التلفاز.

ليلاً نهاراً.. الأطفال رؤوسهم محشوّة بأصوات الانفجارات المتلاحقة، لكنّ بطونهم فارغة قبل النوم.. على صفحات العتمة يرسمون بأصابعهم النحيلة طائراتهم الورقيّة، ويحلمون بأكواب حليب، وقطع سكّر لا

تجيء.. سيأتي من يقول لهم الله حق، والموت حق، والجنة حق، والنار حق، والجهاد حق، وإنّ الله يحيي من في القبور.
أنجولي، لم تحرم أحداً من تقبيل خدّيها، أما عدا ذلك من جسدها، فكان تقبيله ممنوعاً. "خلقني الله جميلة الوجه، الأمر الذي يجعلني محرجة أمام الله، وأمام عباده، فوجدت أنّ سفوري ليس سوى مظهر من مظاهر الشكر لله، وسماحي لمن شاء بتقبيله، ليس سوى بصمة اعتراف بدقّة صنع الله لعيون من يشاهدونني، ولأذواقهم الرفيعة"
لمّا طلب منها حكيم سدرين ألاّ تخاف، ولا تحزن، ولا تقصّ خصلة من شعرها الطويل.. وشرح لها أنّ هناك حياة بعد الموت، وأنّ لقاءً مؤكّداً ما بينها وبين والديها سيكون.. يومها، منعته من تقبيل خدّيها، ووقفت بعيداً عن مجلسه، ولم تقبل منه تعويضاً لقاء دم والديها، ولا معاشاً طيلة حياتها، ولما أدارت له ظهرها، حدّثها بحزن.. إنّك تطلبين المستحيل.. ما عرفته من كتب الحكمة هو أن الأرواح تعود إلى أجسادها، ولم أقرأ ما يشير إلى أنّ أرواحاً تزرع في أشياء لم تكن من قبل مسكونة بالأرواح.
"خزلتني حكمتك"
"ليس بسببي"
"من أوجد الآخر، هل هي الحكمة، أم نحن؟"
"قولي من يحكم الآخرَ!؟"
"لن تكون حكيمي إلاّ حين تعيد إليّ قيثارتي"
"أشتري لك قيثارة أخرى"

"لا أريد سواها، هي معناي واسمي وموطن أسراري"

"إنّني أتوجّع، أرغب في خدمتك، لكنّني عاجز!"

"عجز الحكيم نهايته!"

دعوا كلابكم تنظر إلى عصيّكم!

"لماذا شاندرا ؟!" سأله الراعي.

"شاندرا !" قالها شامان، تأوّه.. من ثمّ استطرد:

"هي حبّي الأوّل والأخير"

"لكنّك تظلم نفسك. أنت في (سدرين) ومشهودٌ لفتياتها بالخلق الحسن والرقّة والجمال"

"لا بأس، ألست القائل "إنّ حبّي الأوّل والأخير لقطيعي!" وقطيعك ينقص عدده ويزيد، منه ما يَنفق، ومنه ما يُذبح، ومنه ما يُفقد، أو يسرق.. إذاً، أنت أيضاً تظلم نفسك، عندما تُخضع الحبّ للربح والخسارة"

رفع الراعي إبريقه عن الأرض، قدمه لشامان. شكره شامان قائلاً:

" لم أعطش بعد أن شربت من رأس النبع، يقولون عندنا من يشرب من رأس النبع، يتأخر العطش في مداهمته"

"ارفع الإبريق بين يديك، هكذا، وستدرك أن الماء الذي أشرب منه، أخفّ وزناً من ماء البئر، التي اعتدتَ الشرب منها، هذا ما يجعل نومي خفيفاً، كما أتخيّل.. تصوّر ماذا يحدث لو كان نومي ثقيلاً؟!"

أجابه شامان مازحاً:

"تريح قدميك، وعينيك، وشفتيك من عاداتك الصارمة، كما تريح أيضاً أغنامك وكلبك من قطع مسافات طويلة"

"أعلم أنّك لا تقصد ذلك" رفع عصاه في الهواء، واستطرد:
"أيّها الغريب، أنت لا تعلم معنى سقوط العصا من قبضة الراعي!"
"هل حدث مثل ذلك في (سدرين)؟"
"قبل أن أجيبك عن سؤالك.. هل حدّثتني بشيء عن أحوال الرعيان في بلادكم"
أجاب الشاب:
"ألَدَيك متّسع من الوقت لسماع ثرثرتي، ثمّ هل أمام قطيعك ما يكفيه من ماء وكلأ حتّى لا تقلق عليه، فيشغلنا أمره، ويقطع علينا حديثنا.. أذكر أنّ معلمي قال لي ذات يوم احذر يا شامان أن يسرقك الوقت من واجباتك؟!"
انتصب الراعي واقفاً، ابتعد قليلاً عن شامان، وثب إلى صخرة بارزة، صاح صيحة عالية، تردّد صداها في الوادي المجاور، فاستجاب الكلب لكلمات لم يفهمها شامان.. نبح ثلاث مرّات، أو أكثر.. التفّ حول القطيع، طوّقه، اشتبكت الأغنام ببعضها، حتّى بدت كسحابة بيضاء في قبّة سماء خضراء.
انتبذ صخرة عالية، استدارّ لاهثاً، مطوّقاً القطيع بعينيه الواسعتين المتقدتين، بينما كان لعابه يسيل بين قائمتيه.
أذهل المشهد شامان، كما فاجأه سؤال الراعي.
بماذا يحدّث شابّاً، لا يعلم الكثير عن أحوال الرعيان في بلاده، ولا يعرف الكثير عن أحوال القطعان، لكن.. هل سيسمح لنفسه بالبوح للراعي

الطيّب بما يعرفه، والراعي لم يبخل عليه بسرد قصص كثيرة، كان قد تذكّرها، ولم يكتم عنه خبراً سبق أن تناهى إلى سمعه.

أيحدّثه عن فقر الصحراء بالمراعي، ومعاناة الرعيان في بحثهم الحثيث عن مصادر الماء، أم يحدّثه عن شراسة كلابٍ تطوّق مضارب الجيران، نباحها المسعور يثقل على الصدور والآذان، أم يقصّ عليه، كيف تُذبح أغنامهم جماعات وفرادى، كيف تتجمّع الثعالب والكلاب والقطط لتلعق دماءها في آخر الليل، وتعمل نهشاً بلحومها، وعضّاً بعظامها.

انتهى شامان إلى نتيجة مرضية، تكون مادّة ثريّة تغني حديثه مع الراعي.

ماذا لو اخترع له قصّة من وحي خياله؟!

جلس على صخرة عالية، قبالة الراعي وأغنامه وكلبه، و قال له محدّثاً:

"إذا رغبت أيّها الصديق بأن أحدّثك عن أحوال الرعيان في بلادي، يحتاج كلانا إلى وقت طويل، أُشفق على قطيعك الذي تخيفه نظرات كلبك المتربّصة أكثر مما تخيفه أنياب الذئاب البعيدة، لذا سأسرد لك القليل ممّا عرفته"

سرّ الراعي كثيراً، بهدوء.. راح ينفث دخان سيجارته، بينما لم تزل أصابعه السمراء ممسكة بعنق إبريقه.

"بالله عليك.. ابعد عيني كلبك عني!" طلب شامان من الراعي.

أدار الراعي ظهره إلى الكلب، ليحول دون التقاء عيني شامان بعينيه، وقد أصاخ السمع لما سيحدثه به.

"جرت العادة كلّ عام أن يرسل شيوخنا فتيانهم إلى غابة بعيدة، طالبين

منهم إحضار ما تيسّر لهم من العصي، يتدرّبون على حملها، واستخدامها، حتّى يجيء يوم المهرجان، حيث تحصل مبارزة، يفوز فيها صاحب الساعد القوي المدرّب، وحامل العصا القويّة المعدّة كما ينبغي.

قفز الكلب من مكانه، تسلّق الجزء السفليّ من الصخرة ليستقرّ قبالة شامان، الذي انتفض، وتوقف عن سرد القصّة، قائلاً للراعي:

"ألم أطلب منك إبعاده عنّي؟"

"لا تخف منه يا صديقي هي عادته، نباح في مواعيد لا يعرفها كائن غيره، ربّما ليُشْعِرَ القطيعَ بوجوده في قيلولتنا، وفي أوقات أخرى يفعل هكذا ليذكّرني باقتراب المغيب"

اطمأن شامان، لما رأى الكلب يقفل عائداً من حيث أتى آخذاً ذات الوضعية وراء الراعي، استوى تماماً، واستطرد محدّثاً:

"الرعيان في بلادنا يعتمدون على سواعدهم وعصيّهم، أكثر مما يعتمدون على كلابهم.. كنت أسمع راعي قطيعنا يقول لرعيان آخرين:

"دعوا كلابكم تنظر إلى عصيّكم أكثر ممّا تنظر إلى قطعانكم"

رفع الراعي إبريقه حتّى أصبح في مواجهة فمه الفاغر، لم ير (شامان) قطرة واحدة تخرج من فوهة الإبريق. مع أنّ الراعي بدا على عكس ما تخيّله شامان. فقد حمد الله، ومسح فمه بكمّ سترته السوداء، وأعاد الإبريق إلى مكانه.

انحنى شامان، رفع الإبريق عن الأرض. كان خفيفاً، أعاده ثانية إلى مكانه. نظر في عيني الراعي، اعترته قشعريرة، قال في نفسه:

"أكاد لا أصدّق ما أراه!"

سحب الراعي نايه من جيب سترته، أدخله في فم الإبريق، تركه برهةً في الماء، ثمّ أخرجه بهدوء، لم يُعِر انتباهه لغير نايه، رفعه قبالة وجهه، أسلمه لفمه، نفخ فيه، خرج لحن شجيّ، سحبه من بين شفتيه، غطّسه في ماء الإبريق، أعاد الكرّة سبع مرّات، بينما كان (شامان) مندهشاً من صنيع الراعي، وهو ينظر إلى الناي عند كلّ دخول وخروج.

لم يَرَ على امتداد الناي قطرة ماء واحدة. لكنّ الألحان التي خرجت من ثقوبه، أطربت، وأرعشت، كما أطلقت سراح الدموع!

"قلتُ لك.. أنت لا تختلف عنّي!"

"نعم، قلتَ ذلك، هل فيما قلته ما يسيء؟!"

"لا، أبداً، جميل أن يدرك الإنسان ذلك مبكراً"

"هل هناك من لا يدرك ذلك؟"

"ليس هناك من لا يدرك ذلك، بل هناك من يدركه متأخّراً!"

"أنت من تكون من بين اولئك؟"

"واحدٌ، من بين مَن تعثّروا كثيراً في إدراكهم"

"أيُتعب صديقي الراعي لو شرح لي كيف؟!"

وضع الراعي نايه بين كفّيه، يدلكه بأصابعه الجّافة، بينما كان دم شامان يسرع في تلوين وجهه، ليس إلاّ خوفاً على القصب من أن يتكسّر بين كفّيه.. فلم يطمئن على آلة عشقها، حتّى عاد نافخاً فيها من جديد.

"عندما أعثر على كهف سدرين، سألجأ إلى صديقي الراعي، وحده..

من يمكنني الاعتماد عليه.. إن لم يعرني نايه، سيسعى جاهداً من أجل تأمين ناي آخر لي.. في أحضان كهف سدرين،، هناك، سأنفخ ما استطعت في فم ذلك السرّ القديم، سيكون النغم مشبعاً بالحنين، تتماهى أنّاته مع ذات الأبديّة، وتضوع نغماته، لتتقطّر وجداً فوق مرايا الزمن" قال شامان في نفسه.

بنظراته الذكيّة، كان شامان يتابع الراعي رافعاً عصاه، بعد أن أتعبه النفخ في نايه. فاستدار مندهشاً، لم ير قطيعاً، ولم يسمع نباح كلب.

"هل جنّ صديقي الراعي؟!" سأل شامان نفسه.

فجأة، ظهر الراعي من جديد، يدعو قطيعه إلى العودة، يصرخ في وجه كلبه، بينما كانت عصاه لم تزل مرفوعة في الهواء.

"كنتَ وعدتني بالشرح يا صديقي، أصدّق ما قلته لي، قد نكون متشابهين.. لكنّنا نختلف في أنّ ما أحبّه موجوداً، وما تحبّه غائباً" ثمّ أطرق الراعي رأسه، قائلاً في داخله:

"لا ألوم صديقي (شامان) لانحسار بصره عن رؤية القطيع والكلاب، أو لعدم سماعه صوتها.. طبعاً، يستحيل عليه ذلك مادام غارقاً في شكّه"

قاطع شامانُ الراعي معترفاً:

"ربّما داهمني الشكّ، لكن!"

دهش الراعي من صِحّة قراءة شامان في كتاب شروده وتأمّله، فرأى أن لا مناص من سرد قصّة الأب، تلك التي تراوده في أحلامه منذ كان طفلاً:

"لا تُكملْ! سأبدّد مخاوفك، وأسرّ لك بما في نفسي ما دمنا صديقين.. كان أبي جزّاراً وحيداً في البلدة يخرج في كلّ فجر مرتدياً مئزره الأبيض، ليعود مساءً، وقد أمضى ساعات طويلة في الذبح، والسلخ، والتقطيع، والشراء، والبيع، بحيث يتحوّل مئزره إلى قطعة قماشيّة ملطّخة بالدماء . ينضوه عند عودته، يعلّقه على مشجب مركون خلف باب البيت، كعادتها.. ترفعه أمّي، تغسله جيّداً، ليكون نظيفاً ناشفاً في الصباح. حيث كان غسله ونشره من أصعب الواجبات، فقد كانت تتحاشى رؤية دجاجة مذبوحة.

ذاع صيت أبي في القرى والبلدات المجاورة، لمهارته النادرة في ذبح الحيوانات وسلخها، ثمّ تقطيعها لزبائن راغبين بنظافة المكان والأدوات واللحم، وجودة حفظه، وأيضاً لِما امتاز به من بشاشة وجه، ولطف معاملة، خصوصاً بعد تزايد عدد المسالخ والجزّارين في بلدتنا، منهم من كان يعمل تحت القانون، ومنهم من لم يزل يعمل فوقه.. طبعاً، بعضهم من كان يعمل في الضوء، والبعض الآخر في الظلام.

أبي.. لم يكُن يهتمّ كثيراً لمشاعر أخوتي، ولا لمشاعر أمّي، ما كان يهمّه وحسب.. استمرار جريان الدماءِ في مسلخه، و بقاء الذبائح مدلّاة من سقفه.

لم يستمرّ الأمر على حاله، ذات مناسبة، أُوكِل إليه ذبح عدد كبير من الثيران، مغروراً، قام بذبح بعضها أمام بعض. ثارت ثائرة الثيران الحيّة، خلعت الأوتاد، قطعت حبالها، هاجت وسط الدار المغلقة، حينئذ.. لم

يسلم أمام اندفاعها الموجودون في ذات المكان، ولم تتمكّن سكين أبي المجرّبة من صدّ هجمات الثيران الهائجة، التي رفسته ومن كان معه أيضاً، وحصدتهم بقرونها. يا للأسف! كان أبي عنيداً، استهوته المهنة، فاستهان بها، لم يُصغ إلى نصائح أمّي:

"نحن نباتيّون، دع مهنتك، هناك كثير من المهن تليق بك!"

كان موته المبكر موجعاً للأسرة. لكنّه لم يمنعنا – نحن أولاده – من التخلّص من سكاكينه وحباله، ومئزره الملطّخ بدماء الثيران.

أردت التكفير عن أفعاله، كارهاً سفك الدماء، حتّى لو كانت دماء ذبابة، فأسرعت إلى شراء قطيع أغنام صغير، أسرح به في المراعي، طبعاً..

كنت مولعاً بمرافقته أيّما ولع، والاهتمام به أيّما اهتمام.

كنت أؤمن أن أثمان أصواف قطيعي وحليبه ومخلّفاته تغطّي نفقاتي، فأمنحه جلّ اهتمامي، كي أراه سارحاً بين الكلأ والماء، يسمن ويتكاثر في دار لا يلمع فيها نصل، ولا تعقل فيها رقبة.

لم يكن الناي نديم وحدتي لوحدي، كان رفيق قطيعي أيضاً. يطرب لألحانه، كالأعشاب التي كانت تسرع في النمو، وتمعن في الاخضرار.

أحِلتُ دكّان – القصّاب – إلى دكان صوّاف، قالوا: "غدا ابن القصّاب صوّافاً" هكذا، غدت أصوافي نزاحم أصواف تجار البلدة، أكثر زبائني نسوة يعتقدن أن من ينم على فراش ووسادة من أصواف خرافٍ مذبوحة، تجئه الكوابيس في نومه، فلا ينام نوماً هانئاً، أمّا العروس التي تلتحف لحافاً مصنوعاً من صوف ذبيحة، فلا تنجب، حتّى الأطفال

الذين ينتعلون أحذية مصنوعة من جلودها، فإن أرجلهم تتقوّس، ومن يعتمرون قبّعات مصنوعة من أصوافها، يتساقط مبكراً شعر رؤوسهم.. والله أعلم بما يحصل لهم غير ذلك.

لم أحسب للحسد حساباً.. ذات يوم عثرت على خروف نافق بين القطيع، تألّمت كثيراً لما حلّ به. وفي المقابل عزّيت نفسي، واهماً أنّ ما حدث له كان حدثاً طبيعياً، وليس ذبحاً.

أهملت القطيع لساعات استغرقها فتح حفرة، لم يطاوعني قلبي على تركه كجيفة تمزّقها أنياب الذئاب، ومخالب الطيور الجارحة، وينخر فيها الدود. لم تتمكّن كلابي الثلاثة من تهدئة قطيع جفلت أغنامه، وتبعثرت، حتّى نفخت في الناي، حينها.. توقّفت الكلاب عن نباحها، وتجمّع القطيع من جديد، سوى سبع نعجات.. عثرت عليها مذبوحة على مدخل مغارة في الجبل، يومئذ.. حاولت إسكات الكلاب عن النباح، فلم أفلح. مضى شهر على هذه الحال، كلّما خرجت مع قطيعي، بشدّة، تنبح الكلاب فوق التلال، فلا يتجرّأ ثعلب على الاقتراب من المراعي. لكنّ نباح الكلاب المتواصل أخرس قصبي، وحال دون وصول أنغامي إلى مسامع القطيع. حتّى ضعفت شهيّته، فلم أستطع منع الكلاب عن النباح، ولم يكن بوسع الكلاب أن تعي ما الذي كان يعانيه قطيعي. هزلت الأغنام، وهنت قواها، فأخذ عددها يتناقص يوماً بعد يوم، حتى لم تسلم منها نعجة واحدة، كنت أحاول جاهداً ألاّ أبقي الأغنام جيفاً فوق التراب، والحزن يرعى أوقاتي"

قبل أن يعيد الراعي نايه إلى شفتيه قال لشامان: "جاء دوري في حراسة أرواح أغنامي، بعد قليل يأتي دور الكلاب التي لا تتأخر يوماً عن حراستها"

شعر شامان بعطش شديد، انحنى قليلاً، مدّ يده ليأخذ الإبريق، لكنّ اللحن الساحر، جعله ينتصب واضعاً كفّه على خدّه. ومتأملاً وجه الراعي، الذي بدا كصورة قمر في بركة ماء. وقتئذٍ، كانت الأعشاب تتطاول حول شامان، وعلى خاصرة الصخرة عند المنحنى، يتفتّح نرجس يتيم، قطع الراعي لحنه الجميل، وضع الناي في جيب سترته وقال لشامان: "ليس هناك من حب أخير، لو كان هناك من حبٌ أوّل!" واستطرد" إنّ حبّاً ينتهي ذات يوم، لا يمكن أن يكون حبّاً أبداً" كم كان أرسطو محقّاً لما لم يضع للحبّ نهاية.

أجاب شامان: "شاندرا، سأكون مخلصاً لها"

"اعتقدت أن بإمكاني تعريف الحب، لكن...!" وسكت الراعي.

قاطعه شامان قائلاً "تظلم الحبّ لو عرّفته!" "لذلك عشته، وأعيشه، وسأعيشه، فهو مائي وهوائي، ترابي وناري، والريح التي أسلّمها جسدي" كان بودّ (شامان) أن يضيف شيئاً، لكنّ الكلاب التي طوّقت المكان من كلّ جهاته، شرعت بالنباح، بعد اشتداد عصف الريح، واقتراب الغيوم من هضابٍ وسهولٍ متأهبةٍ للاحتفاء بماء السماء، لكنّه أراد أن يأخذ الراعي إلى حيث يريد، فنظر إليه بحنان محدّثاً: "تودّ أن تقول.. لا شيء سوى الحبّ.. الحبّ هو الحب.. "قالها، واستدار.

حكمة من تُنكر عليه الحكمة

تمرّ الليالي، ينام شامان ويصحو، فلا تغيب عن ذاكرته حكمة الراعي "ليس هناك من حبٍ أخير، لو كان هناك من حبّ أوّل."

تتوسّط دائرة خضراء محمولة على أعمدة وتيجان من رخام أسود، وعقيق أخضر، تجمعها ببعضها قناطر من كريستال أبيض، وياقوت أحمر، تلمع تحت أشعة الشمس الربيعيّة كمرايا مصقولة، أو كثريات ليلة صيف. بدت أنيقة، تلبس فستاناً أحمر، تتوسّد خصلاً مضفورة من حرير أصفر، مضطجعة على ورقة تفاح مفروشة في صحن من كهرمان، يدور الصحن على قرن غزال، لا اتصال له مع الأرض، ولا مع أجرام السماء، وقد افترّت شفتاها عن ابتسامة ساحرة، وهي تستقبل أزهاراً تنثرها أصابع كائنات عجيبة من كلّ صوب.

لم تكلّمه، ولم تَدعِه للمجيء، طلب منها الاقتراب من الأرض، لم تهتمّ لدعوته، وثب عالياً، أمسك بقرن الغزال، لم يستطع احتمال الدوران فترة طويلة، أصابه دوار ثقيل.. أغشاه، سقط في بحر ذي أمواج هادئة. كاد يغرق في أعماقه، علِق طرفٌ من عباءته بصنّارة، دُهش الصيّاد من رؤية صيده الثمين، فسقط مغميً عليه.

قفز (شامان) من فراشه على أصوات مطارق قريبة من مكان إقامته، كان الوقت ضحى، شرب كأس الحليب، أكل بلحتين، ومن ثمّ اسرع في الخروج مستطلعاً مصدر الصوت.

طريق ضيّقة وعرة، أكثر صعوبة من طرق كان قد سلكها من قبل، تتزاحم فوقها حجارة كبيرة وصغيرة، وتتشابك فوقها أغصان أشجار حراجيّة شائكة.

فكّر في العودة إلى القرية، لعلّه يجد من يعيره فأساً ومنجلاً، فليس الحطّاب الذي كان يفتح طريقاً في الغابة بأكثر عزيمة وإرادة منه، سيفوّت الفرصة على البائع الساحر، وسيعمل جاهداً على استحواذ قلوب الناس، ما دام المطر لا يتورّع عن غسل ما تتركه قدماه على الطرقات، أمّا ما يفعله فيبقى خالداً في ذاكرة سدرين، ووجدان أهلها.

لتبدو أكثر جمالاً !

في اليوم التالي، كانت طريق شامان سالكة ونظيفة، وكان بإمكانه الوصول إلى الجهة التي قرّر الذهاب إليها، لكنّ أحداً لم يره ليلاً، ولم يخبر أحداً بأنّه فعل ذلك بمفرده بفعل ذلك، سوى الفتاة أم الضفيرتين التي أعارته الفأس والمنجل، فقد كانت ابتسامتها كافية لتنسه تعبه، وتمدّه بطاقة متجدّدة لفعل الأكثر.

جاء الصوت من رابية تشرف على وادٍ ضيّق، عميق، تضاريسه شديدة الوعورة والانحدار، لا تطلع عليه شمس إلاّ في وقت قصير من الصباح، يجاوره جبلان مرتفعان، كانا قد انسلخا عن بعضهما في غابر الأزمنة.

هناك توزّعَ رجال أشدّاء، لم يشاهدهم من فبل.. يحمل كلّ واحد منهم مطرقة ثقيلة. إلاّ لمطارقهم ،لا يكاد يُسمع صوت، كما لو أنّهم في سباق لاقتطاع أكبر عدد من حجارة الجرف الصخري المهيب.

سأل شامان أقربَ الرجال إلى مكان وقوفه بعد أن رمى السّلام عليه:

"ما أنتم فاعلون بهذا الكمّ من الحجارة، ولماذا تجعلونها مربّعات ومستطيلات، تقيسون أبعادها هكذا، وتنحتون أطرافها، رأيت في سدرين بيوتاً كثيرة غير مسكونة؟"

أجابه رجلٌ طاعن في السن:

"البيوت الفارغة، نستبقيها للضيوف، كما شاهدت من خلال إقامتك بيننا، طالما يتوافد كثير من الزوّار إلى سدرين، الأمر الذي يدعونا إلى

التأهـب والجاهزيّـة لاسـتقبال القـادمين مـن كـلّ مكـان، ألا تـرى أنّنـا بعيدون عن المدن الكبيرة حيث يتوافر فيها ما يحتاج إليه الزائر والسائح من خدمات ومرافق وسلع، أمّا بشأن الحجارة، فسيكون فيها لأبنائنا مآرب أخرى"

"لو تركتم أبناءكم يتدبّرون أمورهم، لغدوا أصلب عوداً وأقوى شكيمة"

"أولادنا منشغلون ليلاً في الرصد والمراقبة، ونهاراً في إجراء تجاربهم، وردم الخنادق، وتعطيل ما نُصب لهم من شراك.. ما حدث في الآونة الأخيرة من كذب وافتراء، واعتداءات ماديّة ومعنويّة على أهلنا، وتاريخ جبلنا، ترك ثقوباً واسعة في الآذان، وكهوفاً مظلمة ما بين الأجفان والأهداب، وعلى صفحات القلوب"

دعا رجل آخر(شامان) للجلوس على حجرة مشغولة بجواره، وقبل أن يأخذ مكانه حيث أراد الرجل، غطّى رجل ثالث سطح الحجر بسترته الرمادية التي تفوح منها رائحة عرقه، مخافة أن تؤذه رطوبتها، واستطرد سائلاً :

"أهي أيضاً مقولة الرجل الطيّب، أم هي ترجمة لنقوش صخرية في أعماق كهف سدرين؟"

"شيء من هذا، وشيء من ذاك"

"لا أعتقد أنّ الوقت أزف كي يفكّ العلماء رموز تلك النقوش"

"كيف عرفت، أيّها الضيف؟!"

"سمعت عنها مثلما سمع غيري، كما سمعت عن الكهف أيضاً"

"أرجو أن توفّق إلى بلوغ غايتك، فقد سبقك كثيرون في المجيء إلى سدرين"

"أتحبط مسعاي يا رجل؟ لن أبرح سدرين قبل العثور على كهفها، أمّي باركتني، وشاندرا أيضاً، لا يعوزني صبر، ولا عزيمة، مادامت الياقوتة بحوزتي، وما دمت أحفظ دعاء أمّي"

"وهل تعتقد أن حجراً صغيراً، كالّذي تحمله يمنحك الصبر والعزيمة"

"طبعاً، إيماني بأنّ ياقوتتي تمنحني الصبر والعزيمة، لا يختلف عن اعتقادك بأن حجرك هذا يمنحك السلام!"

"لكنّ حجارتي كبيرة، وحجرك صغير"

"إيمان المرء الكبير بحصاته الصغيرة، يجعله قوياً بها، واستهتار المرء بحجره الكبير، يجعله كقشّه في مهبّ الريح"

"ليؤمن كلّ منّا بحجره، وليحترم كلٌّ منّا حجر الآخر! لكنّني شاكٌّ في مقدرتك على نيل مبتغاك، لكن على سبيل العلم أيّها الشاب كلّ من جاء باحثاً عن كهف سدرين، يحار في أمره، يندهش، يسأل نفسه أسئلة عصية، ويمضي"

- بودّي لو ألتقي أحداً منهم.
- وأهل سدرين، بودّهم أيضاً. ولكن هيهات أن يحصل ذلك.
- إنّك تدهشني.
- لا أقول غير الحقيقة.
- أيّة حقيقة تدعوني إلى تصديقها.

أشار الرجل بيده إلى الشمس المشعّة في كبد السماء، قالوا:" الحقيقة كالشمس، تحتاج إلى الاختباء وراء الغيوم لتبدو أكثر جمالاً حين ظهورها"

- أتعني أنّ كلّ من مرّ من هنا، لم يعد ثانية!

- تماماً ، وماذا يدهشك في الأمر؟

"دعني أسألك، هل مررت بأحد، وأنت تروح وتجيء في دروب سدرين، هل اجتمعت بأحدٍ منهم في بيت، أو على مائدة، مع أنّ هنالك الكثيرين من المنتمين إلى أمم شتّى، يتوافدون في كلّ ساعة إلى سدرين. انظر بين قدميك! أليست هذه الأشكال المتباينة أكبر دليل على عبور الكثيرين منهم."

نظر الشاب بين قدميه، وقال:

- إنّك على حق، لكنّني..!

- لكنّ هناك عناية لا نعلم كنهها، هي التي حفظتك، وجعلتك تموت كلّ مساء، ومن ثمّ تُبعث في صباح اليوم التالي، وأنت أكثر إيماناً بما جئت من أجله، وأشد إصراراً على بلوغ هدف وضعته نصب عينيك، هذا ما منعنا من نحت شاهدة لقبرك.

- وهل تحضّرون شاهدة قبر لكلّ من يقصد سدرين؟

- لا نحضّر شاهدة إلا لمن باركوا لنا بخروج الورقة الصفراء من كهفها، أما من تخلّفوا، وأنكروا عليها مصدرها، فتتولّى شؤونهم عناية أخرى، غالباً ما يحار العامّة في وصفها.

كـان (شـامان) راغبـاً في استمرار الحديث مع مُحاورٍ، لا يـرى وجهـه، في الوقت الذي لم ينتصب له ظهراً، حتّى انتهائه من تحضير وزخرفة الحجر المطروح بين يديه، فجأة.. توقّف الضجيج، وخيّم السكون على الجبل.. تجيء فتيات في ربيع العمر، رافعات جرارهن وقدورهن وأطباقهن.
"إلى الطعـام!" دعـاه رجـل كـان للتـوّ قـد رمـى مـن يـده مطرقتـه.. اعتـذر شامان بكياسة، وانتبذ مكاناً لا يراه فيه أحد، لأنّ قليلاً من الخوف بدأ يتسرّب إلى أوصاله، هو بحاجة للإمساك بياقوتته بعيداً عن عيون الرجال والفتيات.

دع الأمر للمصادفة !

لم يملّ شامان من حديث الحجّار، ما دامت الفتاة الشقراء ذات الضفيرتين تصيخ السمع إلى حديثهما، وبين الفينة والفينة تختلس النظر إلى الشاب الأسمر الوسيم، بينما كانت رفيقاتها منشغلات في صفّ الأواني، وتسخين الطعام البارد على نار أشعلنها في مواقد حجريّة.. ودّع شامان الرجل، ولم يلتفت إلى الوراء مخافة أن يطلب أحدهم منه المكوث فترة أطول.. كانت الدرب متعرّجة تمرّ بين تلال ووديان، تحفّ بها أشجار ذات أغصان كثيفة، وقد تفتحت أزهار متنوّعة مشكّلة جزراً ملوّنة على صفحات الحقول الخضراء.

لم تفُت شامان فكرة جمع باقة من الزهر، واللحاق بالفتيات اللواتي ابتعدن قليلاً عنه.

"أيليق بك تقديم الورد للشقراء ذات الجديلتين من دون الأخريات، بماذا؟ وكيف تبرّر ذلك لرفيقاتها، وهل من ضامن لما يتوقّع حصوله لها من مكروه لو أشيع الخبر، أنت غريب يا شامان، تأدّب، واحسب حساباً لأقوالك وأفعالك، مهما قلّ شأنها!" يعود سائلاً نفسه "أين المشكلة؟!" يجيب بنفسه على سؤاله "طبعاً لا مشكلة، تقدّم وردة واحدة لكلّ فتاة منهنّ" من ثمّ يستطرد" لكنّك لم تُحص عدد الفتيات، وها أنت تشكّ في معرفتك لعدد ما بين أصابعك من أزهار"

دَع الأمر للمصادفة، وليحصل ما يحصل، فإذا نقص عدد الأزهار عن

عدد الفتيات، يكون من الممكن قطف ما يكفيهنّ من الزهر عن جانبي الدرب، وإذا زاد عدد الأزهار عن عدد الفتيات، يكون بإمكانك توزيع الأزهار المتبقية من جديد!"

ساذج شامان.. حدّث نفسه طويلاً، حتّى استوقفه سرب عصافير، يتراقص ويتناغم فوق شجرة كرز مزهرة، جنح عن السرب عصفوران متعانقان، طارا بعيداً.. بينما كان سرب العصافير يغرّد، وأوراق الكرز تتبرعم بغنج أمام أشعة الشمس الجريئة،

القيثارة

كانت لم تزل صغيرة، لما أهدى إليها القيثارة، طارت فرحاً، راحت تقبّل يديه، عمل الأب بوصيّة المعلّم ماني، وحقّق رغبة ابنته أيضاً، بعد اليوم.. لن يكون الراعي أكثر حظّاً منها، ستنتظره تحت شجرة السّاحة، وقبل مرور قطيعه بقربها، ستشرع بالعزف، ستعزف كيفما اتفق، ستوقظ الأزهار قبل أن يوقظها الضوء، وتسبق الطيور في الإعلان عن بداية مختلفة للنهار.. الراعي، لم يذهب إلى مدرسة الفنون، ولم يتتلمذ على يد معلّم الموسيقى" مجرّد أن ينفخ في ثقوب نايه، يتجمّع القطيع، تتزاحم أفواف الزهور لعناق مرايا الندى، وتنشغل جمهرة الألوان في إعداد زوّادة بوح للضوء، تقول لأمّها :" جاء من علّمني ألحاناً مختلفة"

"إنّك تهذين، لم يأت أحد سواه"

"مطلقاً! إنّه الآخر.. ذاك الذي يلهم الشعراء، ويتولّى تلقين العلماء والرسل" دهش حكيم القرية، قال في سرّه "موهبة متميّزة ، ليست صنيعة يوم وليلة، ولا وليدة شهور بعينها.. لم تزل سدرين بيئة صالحة لظهور المعجزات" كانت تراهن على أنّ عزفهما سيبعد الخطر عن سدرين، ما دامت ألحانهما لا تنتمي إلاّ إلى نفسها، وأنّ ما يصدر عن ثقوب نايه، وأوتار قيثارتها من أنغام، ليست سوى سلاح غير مرئي، يصدّ عن حدود سدرين الأخطار، ويحرزها من الحسد.. أنجولي سلّمت أمرها للقيثارة – لكي تنجح في عملك يجب أن تتقنه بعد محبّة –

استعذب الناس ألحانها، فتحوا لها بيوتهم، شاركتهم في أفراحهم" لكي تنتصر سدرين على ما يواجه أهلها من مصاعب ينبغي على كلٍ منهم أنّ يفعل شيئاً من أجل السلام ، وأن يصيخ السمع لأنغام الراعي ، وموسيقى القيثارة، كلّ لحن عزفته أنجولي تحت الشجرة يبقى خالداً.. ليس هناك مسجل للصوت.. غير أنّ صوت قيثارتها، يبعث الدفء والاطمئنان في المكان.. من دفعها للمجيء سريعاً ، وكيف نسيت قيثارتها في المنزل، وكيف سيطر على أنفاسها حلم ليلة البارحة .

" اسكتوا أصوات بنادقكم وأبواقكم.!" وطلبت منهم إطفاء نار الفتنة، والرحيل عن سدرين، لا بل عن الجبل كلّه" دعونا نعزف أغانينا!"كما طلبت منهم أن يثقبوا طبولهم، ويخلعوا أحذيتهم الثقيلة" لا توقظوا الأطفال من أحلامهم البريئة!"كما طلبت منهم ألاّ يحطّموا الدمى، ويفسدوا هواء سدرين.

كانت تروح وتجيء تحت شجرة الساحة، لا تملّ من التوسّل والرجاء." دعوها تقول ما تشاء، ما حدث لها كان أكبر من أن تحتمله قواها، لا تتّهموها بالجنون، ليست هكذا، الصدمة..! تجرح ضمير الفنان وتلهب مشاعره"

الحبّ الذي يجعلك مختلفاً.!

شامان الذي أدهشته طبيعة البلاد وحفاوة أهلها، لم ينس يوماً (شاندرا) هو مؤمن بأنّه يسير في طريق العودة إلى من أحبّ. لكن، لو حدث ما اشتهاه، وعاد إلى (شاندرا) ألا يفكّر في العودة إلى حيث ترعرع حب آخر. هذا يعني أنه بحالة سفر دائمة نحو حبّ جديد، كما هو أيضاً في حالة وداع دائمة لحبيب قديم، الحبّ الذي يجعلك مختلفاً، لا تستطيع أن تجزم أنّه آتٍ مع النسيم العليل، أو متماهٍ مع نديف الثلج، أو طالع من منهل ماء، كما لا يمكنك نفي ذلك لتقول، اخترعته أصابع خفيّة.. الرأي الذي يقدّم الحبّ وصفة جاهزة، كوصفات الأطباء والطبّاخين، أبداً لا ينصفه. هو بذلك يشيّئه، حال العاشق المدنف أشبه بحال العصفور المغرّد فوق حبّات العنب، ينقر إحداها، أو لا ينقرها، فإذا صادف ونقرها، يغرّد ممتلئاً، لكنه لو عاد مشتاقاً إلى عين المكان، فنقرها ثانية، وثالثة، سيغرّد نشواناً.

كتب يوماً في مفكّرته: "عزيزتي (شاندرا) احرقي ما بحوزتك من أوراق، لا فائدة تُرجى منها، أو ارمي بها بعيداً. ضعي أصبعك فوق الجرح، كي لا تتذكّري اليد التي امتدت إليك وجرحتك، وإذا استعصى عليك قطع نزيف دمك، واستفزّ شيطانَك لونُه القاني، قلّبي ناظريك في السماء، لا تقولي شيئاَ!

لكلٍ منّا كهفه. غير أنّنا نختلف على عدد الشموع الباقية في حوزة كلٍّ

منّا، كلّما شعرتُ بأنّي أقترب من كهف سدرين، يحدث ما يجعلني أبتعد أكثر، إيماني وعزيمتي بخير، قولي لأمّي دروب سدرين وشعابها معشوشبة بالمخاطر، ابنك لن يفقد الأمل"

هناك حيث يندف الثلج

تفكّر شامان في قول البائع، بعد أيّام يمرّ عام كامل على غيابه، سيعود مالئاً سلّته بكلّ جديد، بعد زيارته لأهله، واطمئنانه عليهم.

"كان أكثر منّي فطنة وذكاءَ، شتاءً.. يعرف أنّ تجارته تبور في قرى جبل شان الباردة، هنا حيث يندف الثلج، ويتشكّل الصقيع، ويسقط المطر، لهذا يؤثر الانتقال إلى بلاد أقلّ منها برودة، أو الرجوع إلى أهله، فلا يعود إلاّ في موعد تفتّح الأزهار، حيث تخرج النساء إلى البساتين والحقول والغابات والينابيع، وقتئذ يجد سوقاً لبضاعته أينما ذهب، وحيثما حلّ.

النعاس الذي هرب أمس من عينيه، اليوم.. يداهمهما بجرأة، فهو يعرف ما يريد، أو أنّ أحداً أراد منه ذلك، فانتصح! يأكل ويشرب من تعبه، وعرق جبينه، ولا همّ له سوى العثور على الزبائن في كلّ مكان يقصده ، مادام قد حمل في سلّته كلّ حاجات النساء من مستحضرات تجميل، وبضاعة أخرى.. من يعمل في هكذا ضرب من ضروب التجارة، لا يبغ من تجارته ربحاً كبيراً، ولا جاهاً عظيماً، فلا يقلق في نومه، ولا يخشى على تجارته أن تكسد.. يكفيه إذا باع الكثير أن يرضى بربح قليل، يحفظ أمثال الناس، يحضر مناسباتهم، يتعرّف على عاداتهم، وفي كلّ فرية، يعثر على صديق حميم، يلجأ إليه عند الملمّات، وقد يمرّ بكهف سدرين، فلا يسترعي انتباهه"

تركت نصيحة البائع الجوّال أثراً أقضّ مضجع شامان، لكنّه لم يفعل

شيئاَ، لم يشتر فأساً، ولا مطرقة، بماذا يجيبه لو التقاه مرّة أخرى، هل هو ملزم بقبول نصيحة الآخر، أم هو فارٌ من تهكّمه.

"لكنّ الآخر لم يكن ثرثاراَ، ولا غبيّاَ، أو جاهلاَ، فهو يتردّد دائماَ إلى سدرين، أهلها زبائن دائمون له، يثقون به، ويحترمونه، ما أدراني لو أنّ أحداً منهم كان قد سمع حديثاً كتمه عنّي. كقول أحدهم إنّني لم أعد ضيفاَ، ومن واجبي الكدّ، والعمل أسوة بالعاملين في سدرين ما أطلت الإقامة! أسئلة كثيرة تراود مخيّلة شامان، على الرغم من تعبه الشديد، ومعاناته الكبيرة من التجوال والتقصّي منذ ساعات الصباح الأولى حتّى المساء.

في آخر لقاء لهما، شاهده يحمل كيساً، هذا يعني أنّه أضاع سلّته، أو باعها، أو سُرقت منه، كما حصل لجوهرته وشاله.

في مائها.. لا تضع يدك!

دائما، كان اهتمام شامان منصبّاً على الخروج إلى الهضاب المحيطة بالقرية، بهدف العثور على الكهف المعجزة، لم يُضع وقته في التوغّل بين البيوت القديمة، تلك التي كانت معرّشة على صخور الجبل، كبنات الدوالي على أمّهات الأغصان. فهي مبنيّة على سبعة أنساق، بين كلّ نسق وآخر، هناك طريق ضيّقة، نصفها على شكل أدراج نُحتت في الصخور، والنصف الآخر يقسم إلى قسمين متساويين، يشكّلان مجريين شديدي الانحدار، أحدهما يقع على يمين الأدراج، والآخر يقع على يسارها، ما يجعل كلّ قطرة ماء تسقط من السماء محكومة بالانسياب التلقائي عبر مجراها إلى أسفل القرية، ملتقية بأخواتها القادمات من أمكنة أخرى بمجرىً رئيس واقعٍ في أسفل البيوت، يذهب بعيداً ليصبّ في سدّ طبيعي، جسمه من الصخر الأبيض القاسي. كان الأهالي قد اشتغلوا فيه منذ زمن غير معلوم، فلا من أحد يتذكّر بداية العمل فيه، لكنّك إذا دقّقت النظر في أماكن ظاهرة من جسم الصخرة، خصوصاً بعد انحسار الماء، ترى حروفاً وأسماء وكلمات مجهولة التاريخ. بيد أنّ الأمر لم يُشغل بال أحد من أهالي القرية، فيسرع إلى ترجمتها، يبدو أنّ الناس هنا مكتفون بالمحافظة على معالم وآثار ورثوها عن الأجداد.

السماء صافية، النجوم الموغلة في أعماق الفضاء، تستحمّ مع القمر الفضّي المستدير في ماء البحيرة الهادئ، تعلّقت عيناه بأشجار حور

فرشت أجفانها ورموشها ظلالاً فوق عين البحيرة المتهجّدة، كما انشدّت مندهشة إلى بانوراما النجوم والقمر والأغصان.. تقلّب صفحاتها على وجه الماء العذب.

لماذا قالت له لا تضع يدك في ماء البحيرة، ولا تشرب منه، الفتاة ذات الضفيرتين لا تريد به شرّاً.!

يسألها:

"حتّى الأطفال لا يغتسلون بماء البحيرة، ولا يشربون منه؟!"

تجيبه بصرامة:

"طبعاً.. حتّى المواليد الجدد."

"اتقي الله يا صبيّة، ألا يكفي ما أعانيه من غربة، وما يحيط بي من أهوال ومخاطر وأسرار، لتأتين قائلةً أشياء لا أجد لها تفسيراً لديّ "

أمسكت بضفيرتيها، تمسح عليهما بأصابعها، بينما نظراتها البريئة منصبّة على ماء البحيرة.

لا تشغلني بجهلك!

أصغى لصوت مطرقة في البعيد، مضى متتبّعاً صداه بين الأزقّة المتعرّجة، لاح له عمود من دخان، تسارعت دقّات قلبه، وقف في باب دكان قديم.. ذي سقف عالٍ.. تلطّخت جدرانه المتهالكة بالسواد، تدلّت من كلّ جوانبه معاول، ومناجل، ومطارق، ورفوش، وأزاميل، وبلطات.. وأدوات أخرى لم يسبق له أن رأى مثيلاتها.

كان يعمل في وسط الدكان رجال ثلاثة، أصغرهم فتى يافع يشتغل على الكير، أمّا الآخران فكانا يقفان متقابلين على جانبي منصّة حديديّة، بملقطه الطويل يثبّت أحدهما قطعة حمراء، بينما ينهال عليها الأخر بمطرقة ثقيلة.

دقائق.. وقف الشاب مشدوهاً، قبل أن يحظى باهتمام أحد، وبلهفة.. راح يراقب الرجال المنشغلين بتفاصيل أعمالهم، ويتأمّل أشكال الأدوات المصنّعة بإتقان.

سأله كبير الحدّادين عن حاجته، بعد أن ألقى القطعة الحمراء في الماء:

"فأس، ومطرقة، وإزميل، و.."

"تبدو غريباً عن سدرين، ما أنت فاعل بها؟!"

"مجرّد فكرة، لم أقرّر بعد ما الذي ينبغي عليّ فعله"

رفع الحدّاد القطعة المحمّاة بملقطه الطويل، تأمّل طرفيها، رفع حاجبيه المبللتين بالعرق، ألقاها ثانية فوق الجمر المضطرم، لينظر إلى شامان بعد

أن أسند نهاية الملقط السفليّة على المنصّة، بينما كانت نهايته الأخرى تنتصب تحت ذقنه، ضحك طويلاً، ممّا أخجل شامان، فتريّث قبل انسحابه، ليعرف من الحدّاد لو بدر منه ما يسيء، غير أنّ الحدّاد، كان أسرع من شامان في المبادرة.

"يتّضح لي أنّك واحد من غرباء كثُر، يمرّون بنا كلّ يوم، أنت مثلهم، لا تقل أنا مختلف عنهم، ربّما لا تعرف ماذا تريد، لا تشغلني بجهلك، عُد من حيث أتيت، حينما تعتمد، تجد حانوتنا مفتوحاً، ونارنا مشتعلة.

ستكون الشمس في قبّة السماء

ضحك الراعي من شامان لما روى له قصّته مع الحدّاد، تماماً كما ضحك من حكاية البائع الذي حوّلته المرأة من بائع جوّال إلى رحّالة، لا يشغله شاغل عن مواصلة ليله بنهاره، ناثراً خرزاته على أبواب الكهوف، واثقاً من أن سلّته ستعود إليه في آخر المطاف، وقد استبدلت خرزاتها بماسات، وبضاعته بجواهر أخرى ثمينة، كان بودّه التحدّث إلى شامان، لكنّه ممنوع من ذلك، هي رغبة أنجولي، هل يضحّي بكل شيء من أجل حديث أطول، أو بوح لا يعدو عن كونه تفريجاً عن كرب، هو لم يزل كما أرادت له أن يكون، تطلع عليه الشمس وهو ماضٍ في سبيل ما يجهله.

قرّر أخيراً ارجاء الحديث مع شامان لحين استعادته لسلّته، عندئذ سيُثبت له أنّ الشقراء ذات الضفيرتين لن تختار أحداً سواه، هو يعرفها تماماً، كانت تشتري منه كلّ ما تحتاج إليه .كانت عيناه تَسبحان في بحيرتي عينيها، لكنّ ضفيرتيها الشقراوين تجعلانها دائمة القلق والحركة، ما يزيد من غنجها ودلالها، هو لن يبخل عليها بشيء، فالنساء ينفرن من الرجل البخيل.

ثمّ هل يخطر في بال ابنة حارس الغابة الزواج من أحدٍ سواه، هرم الأب.. وآن له أن يستريح بعد نصف قرن من العناء، صحيح أنّه حافظ على استمرار حيوات الكثير من أشجار الغابة، لكنّ الزمن لم يحافظ طويلاً

على حيويّته وسلامة أعضاء جسده.

في الوقت الذي كان يرمي بخرزة زرقاء باب كهف صغير، سمع صوت انهيار شديد، لتوّه قفز فوق صخرة مشرفة على الجزء القبلي من الغابة، شاهد حارس الغابة مستلقياً تحت شجرة ، وقد انحنى فوقه شامان، يساعده على النهوض.

فكّر طويلاً في القفز فوق الصخور، والجري نحوه، ليحمله إلى ابنته ذات الضفيرتين الشقراوين، ستقدّر له صنيعه، ولن تنسى له معروفه، هناك في بيتهم ستقدّم له الشاي بالنعناع، ومن جديد.. ستعود عيناه للإبحار في بحيرتي عينيها، ستكون الشمس في قبّة السماء، وسيكون الطقس حارّاً والهواء جافّاً، نصفه الأعلى سيكون عارياً، سيغوص إلى أعماق لاتصل إليها شباك العشّاق، ولن يبلغها صيّادو اللآلئ والمرجان، هناك سيمكث طويلاً، سيدخل ورائها تحت جرف صخري، سيلبثان متقابلين طويلاً، وستحيط بهما شرنقة، تجمعهما إلى بعض، كما لو يجمعهما سرير.

لما عاد من شاطئ هذيانه، كان عليه أن يترجّل عن ظهر الصخرة، ليتوارى عن الأنظار، بينما كان شامان يرفع حارس الغابة من كتفيه.

في لحظة الانـتـظار

لم يفكّر شامان بمغادرة منزل حارس الغابة إلى بيت كان قد استأجره في الحيّ الشرقيّ من سدرين، أرجأها إلى حين مجيء حكيم القرية، فهو موفّق في معالجة الكسور وتجبيرها، ليس الأمر بحاجة إلاّ للقليل من البيض ومعجون نبات الطيّون، وثقة الناس ببركات يديه.

في لحظات الانتظار الطويل، كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، بينما كانت تُعرب عن شكرها وامتنانها لشامان، الفتاة ذات الضفيرتين تدرك أكثر منه ما كان ممكناً حدوثه لأبيها، لو تأخّر قليلاً في إنقاذه، فهو يجهل طباع ضباع ودببة، تخرج عند حلول الظلام لتصطاد فرائسها، ومن ثمّ تعود متعبة، لتنام طوال ساعات النهار.

لطالما خدم الحظ شامان، هي فرصة مناسبة لردّ الجميل، والإسراع في إنقاذ الحارس، أصبح بإمكانه تكرار الزيارة إلى داره، ودون حرج رؤية ابنته، لكن بعد عودته من معمل الصابون، فهو حريص ألّا يكون عالة على أحد، كما هو مصرٌّ على كسب رزقه بعرق جبينه.

"ماذا ينقصه ممّا يتصف به شباب سدرين ورجالها من حيويّة ورجولة؟" غالباً ما كان يسأل نفسه.

"هل عثرت على كهفك؟" سأله العطّار.

دهش شامان من سؤال العطّار المفاجئ "لم يبقَ من أحد في سدرين يجهل سبب بقائي" قال في نفسه.

اعتذر العطّار لشامان عن تدخّله في شؤونه الخاصة، بعد أن لاحظ تأخّره في الإجابة.

"لا أكاد أصدّق ما يجري أمام عيني" قال شامان.

"أفهم ما يدور في خلدك، دعنا من ذلك، اليوم نقوم بتقطيع القوالب، ومن ثم نشرع بالتحضير لوصفة جديدة.. أمسك العطّار بالنصل متجاهلاً ما قدّمه شامان من وصفات تصنيع أفضل لتحسين جودة الصابون، وضمان تسويق أفضل.

كان من الصعب على العطّار العمل بنصيحة شامان، وإن أستحسنها، لأنّ نصله اعتاد على تقطيع الألواح بالحجم الكبير، ثمّ ما أدراه أنّ المستهلك سيغدو بين ليلة وضحاها جاهزاً لاستخدام الصغيرة منها.

"الإسراع في تغيير العادات ليس محموداً، إذ لا بدّ من وقت ليس بالقصير ليتمكّن المرء من تغيير عادة استبدّت به طويلاً " قال العطّار.

"هذا شأنك، لا أبغي سوى الخير، ولديّ أفكار أخرى، سأحتفظ بها لنفسي، ما دمت تجد صعوبة في الإقلاع عن عاداتك" قال شامان.

"لست مندهشاً ممّا يراودك من أفكار، أقدّر لك ما تبديه من إرادة وصرامة ودقّة في عملك، أمّا ما يراود مخيّلتك من هواجس وأفكار جديدة، وما تشعر به من تخوّفٍ وقلق، فلا يستدعي كلّ هذا الانفعال، أعذرك! إنّها الطبيعة تطبخنا في قدورها المجرّبة، تماماً مثلما نطبخ وصفاتنا، فلا يلبث الزمن أن يأتي بمن يشرعون في تقطيع، وتمزيق، ما كنّا نعتقد أنه عصيٌّ على التمزيق والتقطيع.. لا أجد شيئاً في ما أقوله،

يمنعك من قول ما يخطر ببالك من نصائح مفيدة.. إن كان من الصعب قبولها اليوم، اجد لها مكاناً بين تجاربي في يوم آخر" قال العطّار.

"سأحاول أن أخفّف من انفعالي عندما تتخلّص من شيء من عاداتك، أزف الوقت، ويجب عليّ الذهاب للاطمئنان على حارس الغابة "قال شامان.

"قُل إنّني ذاهب لمسامرة الشقراء ذات الضفيرتين!"

***

قال (**أرسطو**):

"الجاهل يؤكّد،

والعالم يشكُّ،

والعاقل يتروّى."

للبرق أبجديّة،

يأتي من يتعلّمها..

للرعد لغة،

يأتي من يتحدّث بها..

من (ينوّت) أصوات الحيوانات، والطيور، والأسماك..

لا بدّ.. أنّه قادر على (تنويت) أصوات جذوع الأشجار، وهي تُنشر، وتُقطع، وتحترق.

من أين الحليب يا ابن الخالة !؟

طال به الغياب كما توقّع له الحكيم، فالكسر الذي أصاب عنق الفخذ لم يكن من الكسور التي تجبر بسرعة، والجبيرة التي وضعها الحكيم على جانبي فخذه، ليست سوى قطعتين من خشب شُدّتا جيّداً عليها.

إلاّ أنّ الابتسامة لم تفارق وجهه، أمضى الرجل أعواماً طويلة، يغادر منزله قبل شروق الشمس، ليعود متأخّراً عند المغيب، فلا عجب إذاً، من أنّ يكون مكوثه الطويل في الغابة مثيراً لغضب الحطّابين، ومنتجي الفحم، فلا يكاد أحدهم يجد ملاذاً حتّى يقع كالنسر فوق رأسه.

مرّات عديدة، حاول الحطّابون الايقاع به، دبّروا له مكائد مختلفة، كادت تودي بحياته، في كلّ مرّة كان ينجو بأعجوبة من الشراك.. ما دعا كبيرهم إلى القول:

"ثمة حارس غائب حاضر، يقوم بحماية حارس الغابة!" صحيح أنّ غالبيّة الحطابين شكّكوا بحديث كبيرهم، لكنّهم صرفوا أنظارهم عن غابة الرجل إلى غابات يحرسها رجال أقلّ منه شجاعة وحيطة، وأضعف بأساً، تاركين أشجار غابته إلى وقت تكون فيه أحلامه أكبر بكثير من قدراته، أو إلى الوقت الذي لا يجدون فيه بديلاً عن غابته، فيستقوون عليه بشياطينهم.

ولأنّه على دراية كافية بمدى خطورة الكسر، أوصى بأن يصنع نعشه من أغصان أشجارٍ هي الأقدم بين أخواتها، مازالت منتشرة في أرجاء الغابة،

مسمّاة بأسماء فلاسفة وعباقرة وشعراء، كان قد أدمن قراءة إبداعاتهم في ظلالها الوارفة.

كثير من أهالي سدرين شاكرون للرجل الذي حافظ على غابتهم من السرقة والحرائق، في الوقت نفسه، كانوا يغبطونه في مواسم القطاف، حين كان يحمل الفطور البريّة، والثمار، والأعشاب الطبيّة إلى داره، ليغدو أكثر اكتفاءً من سواه.

تحدّثت النسوة كثيراً عن الشقراء أم الضفيرتين، تناولن جمالها، دقّة معانيها، حيويّتها، حسن معشرها، تقول الخيّاطة أم سعيد:

"لا أحد يعرف عن الشقراء ذات الضفيرتين أكثر ممّا أعرفه" من ثمّ تستطرد:

- ولِدت الفتاة في صبيحة يوم ربيعي مشمس، بوجه مستدير ضاحك، لتغدو يتيمة بعد أربعين يوماً من خروجها إلى النور.. كان من واجبي حمل قسط من المسؤولية، تجاه الأم الشابة المنتقلة إلى رحمة الخالق العظيم، وأيضاً تجاه الأب المفجوع، إذ تجمعني بالأسرة روابط قربى قويّة، فما كان منّي إلاّ أن استأذنت الأب بحضانة الطفلة، وما كان منه إلاّ أن وافق على عرضي، شاكراً لي مبادرتي - الناس للناس- فأنا وحيدة منذ زمن طويل، أعيش في كوخي، بعد أن فارق زوجي الحياة إثر مرض عضال.

ذات مساء، حمل إليّ حليباً، وقد كنت أوصيته ألاّ يتعب نفسه في حمله، فقد تضاعف مقدار ما تعطيه نعجتي من الحليب بعد دخول الطفلة إلى

كوخي، أنا لا أبيع الحليب، وليس لديّ من أحد يستهلك هكذا كميّة.
سألته عن مصدر الحليب، ابتسم ابتسامة شكر وامتنان، برهةً ظلّ رافعاً رأسه، لا ينقطع له حمد، ولا شكر، بينما كانت عيناه معلّقتين بسقف الكوخ.
كرّرت سؤالي: "من أين الحليب يا ابن الخالة!" بينما كنت أتسلّم الإبريق من بين يديه، لأضعه فوق المائدة، قال:
"لا تغلي الحليب يا ابنة الخالة!"
"لكنّك لم تقل من أين جئت به، منذ برهة، شربت ابنتك الحليب، والوقت لم يحن لتناول وجبة أخرى"
"لو أخبرتكِ كيف حصلت على الحليب لما صدّقت ابن خالتك، لذلك وجدت من الأفضل ألاّ أبوح بما في نفسي، كي لا ينعتني السامع بالجنون"
"أنا محلّ ثقتك، كما أنت محلّ ثقتي، كيف يتبادر إلى ذهنك، أنّ ما ستبوح إليّ به من أسرار سيكون يوماً على ألسنة الناس، طبعاً.. لن أفعل هذا، وهل حدث أن فعلت ما يشابهه في يوم من الأيام ، قُل، ولا تخف يا رجل! ما بيننا من روابط قربى أقوى بكثير من أن تسمح لك بالكتمان، أو تسمح لي بإفشاء الأسرار!"
"شجرة الكستناء المعمّرة!"
"ما حالها؟"
"ما كدت أفرغ من مسح ساقها بباطن كفّي، حتّى فاضت عيناي

بالدموع، حاولت التغلّب على دموعي بأغنية أحفظها عن جدّتي، إلاّ أنّني أخفقت، كان ما ورثته عن أمّي من عواطف جيّاشة، ومشاعر صادقة.. أقوى بكثير من إرادة كبت ورثتها عن أبي.. ما فعلته، كان أشبه بالهذيان، أو بالجنون – هي حالة – لوكنت مخيّراً ما مررت بها، يا لدهشتي! بقيت أكثر من ساعة أضمّ ساق شجرة الكستناء إلى صدري، منتحباً كالأطفال، وقتئذ.. لم أعِ تماماً.. إن كنت في يقظة، أم كنت في حلم، لكنّ ما سمعته من صوت رخيم يشبه هديل الحمام، وما راح يسرح ساخناً فوق صدري، كان عين الحقيقة.

ملأت إبريقي من حليب ساخن، سرح من عين واسعة، تفتّحت في ساق شجرة الكستناء، ومن ثمّ جئت إليك مسرعاً، إنّها هديّة شجرة مباركة لطفلتي، لا تحرمي الرضيعة من هديّة شجرة الكستناء!"

تقول إنّها خبرت الرجال

ما كان لحارس الغابة أن يترك طفلته في حضانة ابنة الخالة، لولا ثقته الكبيرة بأنّها ستهتمّ بها، كما لو كانت في كنف أمّها، ليس مردّ ذلك إلى ما جمعهما من قربى، بل لأنّ أمّ سعيد الخيّاطة فضّلت القيام بأعمال خيريّة كثيرة في قرى الجبل على الاقتران برجل آخر.

تقول إنّها خبرت الرجال جيّداً من خلال رجل واحد، فلا من ضرورة لواحدة مثلها معاودة التجربة.

كانت تعتبر كلّ المواليد الجدد أبناءها، تمنحهم الرعاية والحنان، تحمل إليهم الهدايا، وبأسعار رمزيّة تخيط لهم الثياب مراعيةً أوضاع الزبائن الماديّة، فتسامح المعسر والفقير واليتيم، حيث يبدو السؤال عن أم سعيد.. كالسؤال عن رمز مبجّل في الجبل.

لذا فقد توافرت للشقراء ذات الضفيرتين ظروف لم تتوافر لكثيرات من أقرانها، اللواتي ترعرعن في أحضان أمهاتهن، كبقائها في عهدة الخياطة أم سعيد حتّى بلوغها الخامسة عشرة، وحصولها على حليب شجرة الكستناء ذات الرقم تسعين، كلّ هذا منح الفتاة طاقات تميّزت بها عن قريناتها، أخذت من حبّات لوز الغابة اخضرار عينيها، ومن أشجار حورها طولها الفارع الممشوق، ومن وردها الجوري لون شفتيها ورقّتهما، ومن رمانها استدارة صدرها، ومن لون تفّاحها الأحمر أخذت لون وجنتيها.

حقّاً! كان جمالها الفتّان نسخة مطابقة لكلّ ما هو جميل في الغابة، كما لو استعار الأب كلّ ما في الغابة من جمال وسحر ورقّة وعذوبة، وشكّل منها طبائع ابنته الوحيدة وملامحها.

لما بلغت الخامسة عشرة، والتحقت بأبيها.. حدث لشباب القرية شيء أشبه ما يكون بالصدمة، فلم يذهب بعضهم إلى عمله صبيحة ذلك اليوم، كان بيت حارس الغابة بجوار بيت الراعي، تحيط به حديقة من كلّ الجهات، تُطلّ من طابقه العلوي شرفة واسعة، يعلوها سور خشبي، حيث وجدت الشقراء ذات الضفيرتين أنّ بيتها الجديد أفضل بكثير من كوخ الخياطة أم سعيد، الذي بقيت وفيّة له.. فلم تنقطع زياراتها إليه.

طبعاً.. هناك خارج حدود القرية، لم تُتح لها فرصة رؤية إلاّ قلّة من نسوة جئن مسرعات لبعض حاجاتهنّ، ليعدن من حيث أتين، من دون أن تتوفّر مناسبة للتحدّث طويلاً إليهن، لكونهنَّ يكبرنها سنّاً، ونادراً ما يصطحبن أولادهنّ، لذلك غالباً ما كانت تبدو حزينة، تفضّل النوم على اليقظة، والخروج على المكوث في الكوخ، على الرغم من أنّ أمّ سعيد لم تدّخر جهداً في سبيل إسعادها، يقال "الطفل بحاجة إلى معاشرة أقرانه" وهذا ما كانت الشقراء ذات الضفيرتين تفتقده.

لا تَدَعْهُ يستغرق همّك الكبير .!

اشتاق شامان للقاء صديقه الراعي ومسامرته، مضى له زمن طويل لم يره، أو يسمع عنه خبراً، هي المرّة اليتيمة التي يغيب عنه هكذا مدّة.. طمأن نفسه قائلاً:

"لا داعي لإشغال تفكيري بما آلت إليه حال صديقي، الرعيان يغيّرون أماكن رعيهم، غالباً.. لا يتوقّف الأمر على قناعاتهم الشخصيّة، بل على توافر الماء والكلأ "

لا بدّ من مجيء يوم تكتحل عيناه برؤيته، يسرد له قصّته مع العطّار، وحارس الغابة وآخرين التقاهم.

أليس مناسباً في هذا الوقت أن يدع شامان جانباً كلّ ما يشغل باله، ليفكّر بنفسه، فقد أهملها في الآونة الأخيرة، بعد أن شغل ساعات نهاره بحراسة الغابة، ومنح ساعات طويلة من ليله للعمل مع العطّار، الذي كان صارماً في معاملته، فلا يسمح له بمغادرة عمله قبل الوقت المحدّد للانصراف، وإذا ما حصل وجاءه متأخّراً فلا يعذره، وفي نهاية الأسبوع يحذّره من تكرارها، بعد أن يكون قد حسم جزءاً من أجرته، لكنّه لا يلبث أن يعزّي نفسه بإمكانيّة عودة الراعي، وثقته بشفاء حارس الغابة، ليعود سريعاً إلى أشجاره، أمّا شغله فسيغادره حينما يجد عملاً مناسباً، لأنّ العطّار لن يغيّر شيئاً من عاداته، هو غير مضطرّ للعمل مع رجل يحتفظ بقوالبه القديمة دون تغيير أو تطوير.

ها هو قادم من الصحراء، ركب المخاطر والأهوال، صعد الجبال، تربّع فوق قممها الشماء، قفز فوق الصخور الحادّة والحجارة المصقولة بفعل الرياح والأمطار، داس الهضاب الصخريّة، عبر النهر، نزل الوديان والمنحدرات، تسلّق الأشجار العالية، وارتدى السروال المحلّي والسترة الجبليّة، اعتمر القبّعة، بعد أن استغنى عن زيّه، الذي لم يعد مناسباً للمكان، الأمر الذي أرّقه أكثر، وما استطاع فهمه.. لماذا يتوارى البائع الجوّال عن ناظريه، وهو لم يؤذه بكلمة، أو يسلب منه شيئاً. ولماذا استغنى عن سلّته ذات الخرزات الملوّنة؟

ذات يوم قال له : "لا تدع همّك الصغير يستغرق همّك الكبير!" يومئذ، لم يفهم شامان ما كان يرمي مؤدّبه إليه."

"قدري" قال في نفسه.

أن تعرف لماذا جئت .!

مضى على قدوم شامان إلى سدرين زمن طويل، لم يهتدِ خلاله إلى كهفها، على الرغم من أنّه لم يترك وسيلة متاحة إلاّ جرّبها، ولا درباً إلاّ سلكه، ولا فرصة إلاّ اغتنمها، ما أصعب البحث في شعاب هذه الجبال وقفارها.. طبيعة قاسية، لا يعيش فيها سوى من أحبّوها حتّى غدت أنهارها كشرايينهم، وصخورها كأقفاص صدورهم، وأغصان أشجارها كجفونهم وأهدابهم، كلّما اقترب من فهمهم، ينتابه شعور بعدم الرضا عن أفعاله، مسرعةً .. تدور عجلة الأيام، تجعله أكثر قلقاً من أيّ وقت مضى، لعلّ من قدموا إلى سدرين في فترة مجيئه، كانوا أكثر منه يقيناً بالعثور على كهفها، عرفوا لماذا جاؤوا، فلم يفعلوا أشياء أخرى تلهيهم عن هدف عظيم قدموا من أجله، أمّا هو فقد انخرط في مجتمع سدرين، دخل بيوت الناس، أكل من طعامهم، شرب من شرابهم، نام في بيوتهم، شارك في أفراحهم، وأتراحهم، وأخيراً وجد له عملاً يجعله مكتفياً، فلا يبقى في طعامه وشرابه عالة على أحد.

أكثر من مرّة، خطر له خاطرُ العودة من حيث جاء، لكنّه مدرك تماماً، أن المهام الصعبة والنبيلة، تحتاج إلى صبر طويل، وحلمٍ أكبر، وصرامة قلّ نظيرها، لم تكن علاقاته مع الكثيرين من أبناءِ سدرين تشير إلاّ إلى الأمر الذي لا يأتيه الباطل، وهو أنّ مجتمعها قبِله كفرد من أفراده، خلافاً لزوّار القرية، الذين يتدفّقون دون انقطاع.

أيشكك للحظة واحدة بصديقه الراعي، وقد أفضى كلّ منهما لصديقه، أم بالفلاّحين، والحطّابين، وعمال المقالع، والحدّادين، وآخرين.. لطالما جمعت بينه وبينهم أواصر إنسانيّة راقية، وعلاقات غير نفعيّة.

اليوم هو مسؤول عن أقواله وأفعاله أكثر من أيّ وقت مضى، فقد التزم مع حارس الغابة، ذاك الرجل الكريم الذي أصبح مقعداً، ولا سبيل إلى إعالته إلا بتطوّعه شخصيّاً لحراسة الغابة، ريثما يتعافى، ويعود كسابق عهده.

شتّت أفكاره، أنهك قواه، فأصبح البحث عن كهف سدرين لا يأخذ من وقته وجهده إلاّ القليل، بمفرده وقع في دوّامة، لا يستطيع الخروج منها.

لكنّه ما نام يوماً إلاّ قرير العين، ولا استيقظ يوماً إلاّ وتملؤه الشجاعة، ويحدوه الأمل، في الحقيقة.. يبدو شامان إنساناً آخر.. تماماً غير الإنسان الذي كان محبطاً قبل مجيئه إلى جبل شان.

ومن سواها!؟

"ها أنت ذا تقترب من كهفك أكثر من أيّ وقت مضى" قال الراعي لشامان لما رآه يتفقّد أشجار الغابة.

قفز شامان من وراء جزع شجرة البلوط القديمة، كاد يكذّب عينيه اللتين رأتا، وأذنيه اللتين سمعتا، عانق الراعي، رفعه عن الأرض، دار به في المكان، كما لو أنّه هديّة السماء، راح كلّ واحد منهما يشدّ على قبضة صاحبه، ويضمّه بقوّة إليه، إلى أن أعياهما الالتحام والدوران، فأخذا مكانيهما من ظلّ الشجرة الشاهدة على لقائهما بعد زمن طويل.

"تقتربُ من كهف سدرين أكثر من أيّ وقت مضى!" قال الراعي لشامان.

"ما مؤيّد زعمك؟ لا أظنّني مقترباً منه، كهفكم هذا عصيّ على الاكتشاف"

"النتائج ثمار الوقائع والمشاهدات، وما أراه بادياً على محيّاك ليس سوى دليل على اطمئنان وعافية، هذا يعني لي الكثير، كما يعني لغيري ممّن يعرفونك جيّداً، ربّما سمعت منهم نفس الكلام الذي تسمعه الآن منّي"

"كنت أظنّني لن أراك بعد آخر لقاء، خصوصاً بعد أن شغلتك عنّي أشجار الغابة، وأبعدك عنّي اهتمامك بشخص آخر"

"من المقصود؟"

أطلق الراعي ضحكته المعهودة، وأجاب :

"من سواها!"

"كلّ واحد منّا تشغله عن الآخر هموم مختلفة، لا أعتقد أنّني في حال تمكّنني من التفكير بما نقصد"

"لا تكن ساذجاً إلى هذا الحدّ، احرص يا صديقي ألاّ يشغلك شيء عن تذوّق ثمرات الحب"

"وضعت مشاعري بتصرّف حبّ كبير قدمت من أجله"

"هل هنالك من حبّ صغير، أو حبّ كبير، الحبّ يا شامان لا حجم له، ولا وزن، لا يقاس أو يعلّب، تشعر به ولا تدركه، فحذار لو جاءك أن تعتذر له، أو تغلق في وجهه باباً.. دعه يراك كما أنت، يقتطع حصّة من وقتك، ويفعل بك ما يشاء، مخافة أن يغادرك لو أتيت بما لا يرضيه، فلا يعود إليك أبداً.. هذا ما أراه، أمّا المعلّم ماني فله رأيّ آخر"

" ما رأيه؟" قال لي ذات يوم" العثور على من تحبّها يعني فقدانك لها، فكلّما ابتعد عنك الحبيب، اقتربت منه أكثر "

"ربّما سأتفرغ لعواطفي بعد حصولي على مرادي، فأحقّق رغبة أمّي، سأكون أكثر إقبالاً وسعادة، وستكون فخورة بابنها الذي أنجز اكتشافه"

" أمثالك كثيرون، شغلتهم شؤون الحياة، ومسائلها التي تزداد تعقيداً يوماً إثر يوم، نعم! شغلتهم عن الدخول إلى أعماقهم، يا صاحبي! في داخل كلّ منّا طفل بريء جدّاً، يُسعَد لشيء في غاية البساطة ، لهديّة متواضعة، لكلمة طيبة، لابتسامة رقيقة صادقة، لنظرة أولى، فلا ترجئ فرحك ومتعتك، سترى أثناء مكوثك في هذه الغابة أن التغريد لا يمنع

الطيور من بناء أعشاشها، وبناء الأعشاش لا يمنع الطيور من التغريد، كما أنّ الرياح العاصفة لا تمنع الفاكهة من النضوج"

اقترب شامان من الراعي المتكئ على جذع شجرة، صافحه، طالباً مرافقته في جولة قصيرة في الغابة.

أراد الراعي الاعتذار، وإرجاء جولته إلى يوم آخر، لكنّ شامان أصرّ على الجولة بحجّة أنّه مرّ بإشارات يرغب في الاستفسار عنها، إذ لم يجد تفسيراً لما شاهده معلّقاً على بعض الأشجار من قطع معدنيّة مزيّنة بأسماء وأرقام.

أجمل الغناء!

انشرح صدر شامان لما سمعه من حديث الراعي الذي أخبره بما تعنيه هذه الإشارات والأسماء المكتوبة على لوحات معدنيّة، منها ما عُلِّقَ حديثاً، ومنها ما علّق قديماً على الأشجار.

الشجرة ذات الرقم تسعون، احتفل أهل سدرين بوضع الوسام على صدرها، تماماً.. في اليوم الذي وطئت قدماه تراب القرية، حيث انضمّت إلى أخواتها، وغدت واحدة من بين أشجار خالدة يشار إليها بالبنان، يقصدها الزوّار القادمون من خارج القرية، ليأخذوا معها صوراً تذكاريّة، تماماً كأخواتها!

سأل شامان الراعي: "ما نوع هذه الشجرة؟"

أجاب الراعي:

"الكستناء!" صديقة المعلم ماني، في أفيائها.. استلهم الشعر، وتعلّم الموسيقى.

دُهش شامان من الحكاية، لم يعلّق على ما تناهى إلى سمعه من كلام، لكنّه سأل الراعي ثانيةً.. بعد أن سمع منه أغنيّة شعبيّة قصيرة"

"ما كنت أحسبك تغنّي!"

"ربّما كان الغناء يا صديقي سابقاً للعزف، أو العكس، لكن ليس الغناء الذي تسمعه وأسمعه، بل الغناء الداخلي ذاك الذي يصعب تحديد مركز انطلاقه، هذا لا يمنعنا من القول إنّه يتماهى مع نبض كلّ خليّة من

خلايا الجسد البشري، وأجمله الغناء الصامت الذي لا يسمعه سوى صاحبه، لكلّ منّا أغنيّته، تولد معه، تموت معه، لا يُسْمعها لأحد، الأغنيّة الحقيقيّة يا صديقي لم تُغنّ بعد، ربّما يكون صاحبها حاضراً، ربّما يكون غائباً، مولوداً، أو مازال في رحم أمّه، لكنّني أجزم أنّها غير معروفة حتّى الآن، غالباً ما أسأل نفسي قبل أن أسأل أغنامي، أليست تلك الأغنية الموعودة، هي التي ستجعل الناس يطربون لها في يوم من الأيام، كما تطرب أغنامي لأجراس الصباح والمساء، وكما يُطرب كلّب الصيّاد لصوت طلقة بندقيّة، واستطرد الراعي:

"ما يجري المرء باحثاً عنه ليس إلاّ في أعماقه"

قال شامان: "أمّي لا تخطئ، فالغرض الذي جئت أبحث عنه ليس إلاّ في أعماق جبل شان"

"أنت لا تستطيع معرفة كلّ شيء عن جبل شان، ولا أجد نفسي مضطرّاً لشرح ما لم يحن وقت شرحه" علا نباح كلب الراعي، تزامن مع عواء قطيع من الثعالب، انطلق من وسط الغابة.

نظر كلّ منهما إلى صديقه.. الاثنان، نظرا باتجاه الشمس التي كانت تذرف دموعها القانية فوق صفحة البحر الزرقاء، ودّعا بعضهما، ذهب كلّ منهما في حال سبيله، الراعي أسرع باتجاه كلبه، بينما تسلّق شامان الرابية حيث كان ينطلق من ورائها عواء متقطّع.

ما كنت أرغب في رؤيته

باكراً.. عاد شامان إلى الشجرة، بعد أن نام نوماً هادئاً طوال الليل، لعلّه يكون بقربها حينما يبدأ حليبها بالتدفّق، نصحه معلّمه أن يُعمل الشكّ في ما يسمعه من أخبار، ما يدعوه للاستزادة من أسئلة تولّد لديه قناعة بصحّة ما يسمعه، شامان لم يسأل أحداً، بل جاء بنفسه.

ما إن اقترب من ساحة القرية حتى ظهر له رجلان لم يرهما من قبل، واحد منهما يمسك بسطل صغير، بينما كان الآخر يتأبّط أوراقاً- من اللائق مساعدتهما- ألقى عليهما التحيّة، ردّاها بأحسن منها.

"هل أستطيع مساعدتكما؟" سأل شامان.

"عملُنا هيّن، لا يحتاج إلى أكثر من شخصين، شكراً لمبادرتك اللطيفة، يمكنك أن تمنح وقتك لما يقدّم لك الفائدة" قال حامل السطل.

"رافقتك السلامة" قال حامل الأوراق.

تمهّل شامان قليلاً، كان بودّه أن يسأل الرجلين ما الخطب، لكنّه لم ير في وجهيهما بشاشة تشجّعه على الطلب، استدار، مشى خطوات قليلة، توقّف برهة، قال في نفسه:

"ليس السؤال عيباً، لم يأتيا للصق هذه الأوراق إلاّ ليقرأها الناس"

لما رجع خطوات قليلة إلى الوراء، وسأل حاملَ السطل، لم يجبه الرجل، إنّما أشار إلى ورقة ملتصقة بالجدار المقابل، نظر شامان عالياً، اعتراه الذهول، إنّها صورة لشجرة مقطّعة الأغصان، تماماً.. تشبه الشجرة التي

كان يمرّ بقربها عند عبوره الغابة، فلا يحفل بها، لم يسأل نفسه، أو يسأل أحداً عن سبب اليباس، تركاه وراءهما مندهشاً، تابعا مشيهما في أزقّة القرية مكملين مهمّتهما.

قال شامان في نفسه:

"لم يزل الوقت مبكراً، اليوم من أوّله، سأصادف في دربي من يشرح لي ما صعُب عليَ فهمه، ربّما تأخرت في الحضور إلى الغابة، فما أدراني أن تكون شجرة الكستناء قد أعطت حليبها، وحصل ما كنت أرغب في رؤيته"

سلك شامان أقرب الطرق إلى شجرة الكستناء، ظنّاً منه أنّ في اختصاره للطريق المعتادة يوصله في الوقت المناسب، فيرى الحليب يرشح من ساقها، كان يقفز فوق ألسنة الصخور الحادّة، يدخل في فجواتها الضيّقة، يحتال على الكتل الصخريّة البارزة، لعلّه يختصر الوقت معرّضاً نفسه للأخطار عند مروره على حواف الهضاب المنزلقة، والأراضي الطينيّة الرخوة، حيث أنهكت قواه ساعات من المشي في تضاريس خَطِرة المسالك. أدرك بعد أنّ خارت قواه أنّ وصوله عبر هذه المجاهل لا يوصله إلى شجرة الكستناء، كان عليه ألاّ يمشي في طريق يجهلها، استدار إلى الجهة التي جاء منها، نظر إلى الشمس، كانت في قبّة السماء.

قال في نفسه: "إن لم يكن من أحدٍ يصحّح لي أخطائي، فليس جبناً أن أعترف بتهوّري، سأعاود تسديد سهمي، ألم يقل لي صديقي الراعي — كثير من الطلقات تذهب في الريح قبل أن يحقّق الصيّاد النتيجة المرجوّة"

بين الأزرق واللازوردي

بينما كان يتأهب لمتابعة رحلة عودته من حيث جاء، نفذت إلى أنفه رائحة بخور، انشرح لها صدره، كما لو أنّها أعطته جرعة من حماس بعد نصف نهار من تخبّط وضياع في مسالك جبل شان. على الفور، سار متتبّعاً مصدر رائحة، تزداد كلّما اقترب، منذ زمن لم يشتمّ رائحة بخور، لابدّ أنّ أحداً يمارس طقسه بعيداً عن أعين الرقباء، فهو منذ اللحظة الأولى لسلوكه هذه الطريق الموحشة، أحسّ برهبة غريبة، ما جعل ذاكرته تنسج خيالات وصوراً لأشباح، تسعى إلى إحباط مسعاه، ما دعاه للقول في داخله: "إنّ من يقول يا أخي، ليس سوى أنسيٍّ، أنا لم أسمع قطّ أنّ الجنّ يتكلمون بلغة البشر، سأحث الخطى، لأتسلّق الهضبة مستطلعاً مصدر الصوت قبل جنوح الشمس للمغيب، لم أستفد من عزلتي الطويلة شيئاً، ربّما أجد كهفي في أماكن لم أكن أتوقّع وجوده فيها، على المرء ألاّ يكون هكذا عنيداً، وأن لا يسمح لفكرة واحدة بالسيطرة على هواجسه، لا شيء خالٍ من شيء"

لما انتهى شامان من تسلّق الهضبة، طالعته ستّ هضاب أخرى، تربّعت كلّ واحدة منها فوق كتف أختها، لتشكّل قباباً أنيقة، كلوحة جميلة، رسمتها ريشة خالق بإتقان، ليطلق عليها البشر اسم (جبل شان).

يتوق إلى رحلة بحريّة تأخذه إلى جزر بعيدة، هناك بين الأزرق واللازوردي ينسى أشياء كثيرة، البحر لص محترف، يشبه كبير القراصنة، يبدأ دائماً

مع الزائر الجديد بالرقص، يحمله إلى دوار، يضطرّه إلى إفراغ ما في أحشائه، يرميه على سطح السفينة، لا ينسى هذا القرصان المراوغ أن يرتشف عن خديه الألوان، بشراهة يلتهم قواه، كما يشرب من عينيه الفرحة، لحظات يفقده السمع، فلا يتعرّف الآخر إلى صوته.. يضطرّه للنسيان، هذا ما يخيف شامان.

– لا عمل من غير إرادة ومعاناة، لكي يكسب شامان، يجب أن يخسر، مثله كمثل شجرة، كمثل بذرة، كمثل صيّاد يفقد أكثر من طعم ليحصل على سمكة.. يفكّر في ركوب البحر، لكن بعد اهتدائه إلى كهف سدرين. الآن، ما عليه سوى التقدّم نحو الشجرة التي تعلو كلّ الأشجار، وتزيدها خضرة واتساعاً، ويحيّي ذلك الشاب، الذي يدور حولها عكس دوران عقارب الساعة، ممسكاً بأشياء لا تبدو واضحة، ربّما بسبب دورانه السريع حول الشجرة، وقد تقاطعت حركاته مع أشعة الشمس المتسلّلة بين الأغصان، والظلال المتماهية مع الشعاع.

المختلف، يأخذك بعيداً

لم يهتّم الشاب الغريب لحضور شامان الذي وقف على مقربة منه، هو منهمك في دورانه حول الشجرة، يحمل في يمناه مبخرة، وفي يسراه قميصاً أخضر، كلّما خمدت جمرات المبخرة، وانقشع الدخان، ذهب إلى نار مشتعلة في الجانب الأيمن من الشجرة، يضع جانباً مبخرة مطفأة، ويأخذ واحدة من المباخر الخمس المركونة قرب النار، يملأها جمراً، ينثر فوقها أقراص بخور، يعود من حيث انتهى متابعاً دوراته السبع، ليجلس متأمّلاً الشجرة من نقطة اتصالها بالأرض حتّى نقطة تفرّع الأغصان، ثمّ يفعل العكس، يكرّر الحركة نفسها سبع مرّات غير منقطع عن التمتمة بكلام غير مفهوم، ما إن ينتهي من الحركة الأخيرة، حتّى يقوم بنقل القميص من يده الشمال إلى يده اليمين، بعد أن ينفضه واحداً وخمسين مرّة فوق دخان المبخرة، حين ينتهي من طقسه المنسجم والدقيق، دون إخلاله بحركة واحدة من نظامه، يعود إلى حيث انطلق متابعاً دورانه بلا كللٍ، أو ملل، سكون جليل، لا أصوات قادمة من بعيد، ولا حركات صادرة من قريب.

في حين كانت العصافير ترفرف فوق أغصان الشجرة متجاذبة تغاريدها، غير مهتمّة به – هو – المندهش بطيرانها وتغريدها، ولا بالشاب المنصرف كلّيّاً لطقسه، هذا ما جعله منبهراً من كلّ ما رآه، متناسياً أن حمرة الشمس، تعانق زرقة البحر، في الوقت الذي يعود فيه الصيادون إلى

شاطئهم آمنين غانمين.

حاصـرته أسـئلة شـتّى، وقـف عـاجزاً عـن حـلّ أيٍّ منهـا، ربّمـا اسـتغلّ الحطّابون غيابـه، فاعتـدوا على خضـرة الغابـة، ربّما افتقـده الراعـي، فـراح يبحث عنه، هل سيعذره صاحب المعمل لو تأخّر مساءً؟

قال في نفسه:

"لـن أغـادر مكـاني قبـل أن يخلـص الشـاب مـن طقسـه، فأتحـدّث إليـه، أعرف شيئاً عمّا يقوم به من أفعال، ما أشاهده اليوم مختلفاً، والمختلف يأخذك إلى البعيد، ألم يكن المختلف نفسه ما جاء بي إلى سدرين؟!"

جلس شامان عند جذع شجرة أخرى متأمّلاً الشـاب الـرزين، مسـحوراً بحركاته، وبالصفير الصادر من بين شفتيه، غدا المكان بقعة مضيئة تظهر مـن خلالهـا سيقان شـجر عاريـة، كسيقان حوريّـات جئن متبرّجـات إلى حفلة سمر في ليلة صيف.

أمهلني قليلاً!

لما أتمّ الشاب طقوسه، أعاد المبخرة إلى جانب أخواتها، رفع القميص من كمّه، علّقه على غصن تدلّى من شجرة، كان قد عَقَلَ بغلته بساقها، أخرج الشعير من كيس كان على ظهرها، وضع شيئاً منه أمامها، ثم عاد مسرعاً يلقي التحيّة على شامان، ويعتذر له ، قائلاً: "أتردّد إلى هذا المكان منذ ثلاثة أشهر، ما صادف يوم أن رأيتك فيه، هل أنت من هذه البلاد فجئت متنزّهاً، أم أنّك غريب جاء باحثاً عن شجرة"

دهش شامان من سؤال الشاب، فأجابه بابتسامة: "هل هناك من أحد لم يسمع بحكاية الشجرة، لو جئتَ باكراً، لوجدت الناس من مختلف البلدان، وقد قدموا إليها سائلين"

"يسعدني جدّاً أن أكون أوّل من يخبرك بشيء عن الشجرة، امهلني قليلاً ريثما أحضر الإبريق، وأطبخ الشاي الأسود على هذه الجمرات"

كانت صفحات خدودهما تلتمع أمام ألسنة النار المضطرمة، بعد أن أطعمها الشاب كثيراً من الحطب، هكذا تآلف الشابّان، وانسجما مجتمعين على كوبين من الشاي، في مكان بعيد، وجوٍ دافئ، كما لو أنّهما متعارفان منذ زمن بعيد.

"الآن.. هل أوضحت لي ما أجهله؟" سأل شامان.

" لم أر بعينيّ شيئاً، ولا قرأت ذلك في الكتب، ربّما انتقل الخبر من شخص إلى آخر، حاول كثيرون التشكيك بصحته، لكنّ الناس ظلّوا

مصدّقين، ولست إلاّ واحداً منهم"

"أكاد لا أفهم شيئاً من مراميك، هلاّ أوضحت لي؟!"

" لم أتحدّث بشيء يصعب فهمه، كلّ ما في الأمر أن هذه الشجرة قديمة، ولا من أحدٍ يخبرك كم عمرها، يحكى أنّ رجلاً حملها غرسة صغيرة إلى هذه القمّة، حينما قصد جبل شان ليغدو مستقرّاً له، وما يروى عن حال الرجل الذي تولّى زراعتها، أنّه كان علّامة.. يدعو إلى المحبة والصلاح والعدالة، وكان له دراية بالأمراض ومعالجتها، كما يحكى حتّى هذا الحين، أنّ من يجاور هذه الشجرة لا يصاب بأذىً، لكنّ وجودها في هذا المكان القصيّ والمرتفع، يجعل من الصعب المكوث بقربها طيلة العام، لذلك ترى الناس يتسابقون إلى زيارتها في فصلي الربيع والصيف"

***

قال حكيم:

" أظلم من الظالم من يساعد الظالم على ظلمه!"

هل من العدالة، أن تمرّ أفعالنا من قتل.. وذبح.. وتقطيع.. وتجويع من غير عقاب، من سيفعل ذلك، أهو المنتج الإنساني، أم الفعل الإلهي؟

مَن يُمسكُ مَن عَن؟!

أُحبّ الأسئلة العصيّة!

نسمّي الجهات بأسمائها

سُرَّ شامان للمصادفة الجميلة التي جمعته من جديد بالفلاح، ذاك الذي قابله في الأسبوع الأوّل من إقامته في سدرين، كما انفرجت أسارير الفلاح لرؤية شامان بعد غياب، دعاه للجلوس تحت أقدم شجرة في الغابة، تجنّباً أشعة الشمس الساطعة ظهيرة ذلك اليوم الصيفيّ.

"أما زلتَ مصرّاً على معرفتك بالجهات؟" سأله الفلاّح.

ابتسم شامان، وانحنى كي يجلس بقرب الفلّاح بعد أن مسح العرق عن جبينه. مجيباً:

"يبدو لي أن الجميع في جبل شان يملكون ذاكرة قويّة، كنت أظنّك نسيتني، ونسيتَ ما دارَ بيننا يومها من حوار"

"مسكين يا صديقي! لم تزل جاهلاً بالكثير من طباع أهل سدرين، على الرغم من أنّ المدّة التي أمضيتها في ديارهم ليست بالقصيرة – أُحيطك علماً – أن ما من واحدٍ منهم إلاّ ويرغب في نسيان ما يجلب إليه التعاسة من أحداث – النسيان حالة صحيّة يا صاحبي! هناك حالات كثيرة يكون فيها أكثر أهميّة لسلامة المرء من التَّذكّر – لكن ليس من السهل عليّ مسح صور تكاد تكون الأسرع من سواها في التّذكّر، كصور أفعال تستبيح كرامة الإنسان، وتهدّد مصيره.. ربّما ساعة حزن واحدة تمرّ على المرء قادرة على أن تنسيه مئات الساعات من الفرح، فمن أين لنا بمئات الساعات من الفرح كي تنسينا ساعة حزن واحدة،

سبق أن استبدّت بقلوبنا وعيوننا ومشاعرنا"

"هل هناك من أمر يهدّد مصيركم كبشر؟" سأل شامان.

"طبعاً هناك أكثر من أمر"

"هل لك أن تحدّثني عن شيء منها؟"

"لا أظنّك تقوى على احتمال ما يمكن سرده، ما دمتُ لم أزل على يقين بجهلك بالجهات، فقد نمي إليّ أنّك تسمّي الجهات بأسمائها، تسّمي الشرق شرقاً، والغرب غرباً، وهكذا دواليك.

هذا يؤكّد لي أنّك شبيه بقرتي، هي لا تستجيب لرغبتي لو أردتُ الشروع بحراثة حقلي عكس ما اعتادت عليه، حتّى لو كان ذلك الأهون على رقبتها وقوائمها.. ها أنت تسلك ذات الدروب التي سلكتها، لم تغيّر مسارك، ولا عاداتك، كأهل سدرين قبل الذبح الأعظم، كانوا مقتنعين، راضين، حامدين، شاكرين، زاهدين بما لدى جيرانهم من ثروة وقوّة ومكيدة"

"لا أعلم شيئاً عمّا تحدّثني عنه أيّها السيّد، سألتني لو ما زلتُ مصرّاً على معرفة الجهات، للتو، غيّرت حديثك، فأخذتني إلى حيث لم أعد أفهم شيئاً، هل لك أن ترأف قليلاً بحالي، فلا تعقّد عليّ المسائل والأحاجي؟"

" محقّ أيّها الشاب، لم أزل مأخوذاً بحلم رأيته أمس، صادف أن تقابلنا في مكان لا أزوره إلاّ قليلاً، إذا ما حدث، وكنت قد زرته من قبل، فليس دون بقرتي"

"وأين تركت بقرتك الملوّنة، الحقيقة أنّني معجب بألوانها، حتّى لو لم

تعجبك عاداتها"

"لا يهمّني! أعجبتك بقرتي، أم لم تعجبك، فهي الآن طليقة، تحرّرت ضروعها من أصابعي، وتحرّرت من واجبي تجاهها، ما زال الإنسان يضاعف من مسؤوليّاته، ويزيد من أعبائه، حتّى غدا عبداً لرغبات لا حصر لها، فما هجراني لبقرتي إلاّ مبادرة من هذه المبادرات الجريئة، التي تأخّرت كثيراً في الشروع فيها"

"لم تزل تحيّرني أيّها السيّد، هل تخلّيت تماماً عن بقرتك، وهجرت بيتك"

"تماماً، أيّها الشاب، أنا اليوم مثل أيّ حيوان بريّ، مثل أرنب، مثل سلحفاة، مثل ضفدع، لسوء حظي لا أملك جناحين، آخ! جناحان، ماذا يفيدان أمام هذا العدد الكبير من البنادق المسدَّدة، والأنياب المتحفّزة"

"والأرض! تلك الحقول التي حرثتها، والأشجار التي زرعتها، والدجاجات التي دجّنتها، وأثاث البيت الذي اقتنيته، والمؤونة التي حفظتها، لمن تركت كلّ هذا، وغيره من أشياء تراكمت لديك منذ عشرات السنين"

"لتغطي الحشائش وجه حقلي.

لتقطف ثمار أشجاري.

لتهاجم الثعالب دجاجاتي السبع.

لتتغذّى جيوش النمل على مؤونتي.

وليصبح بيتي ملعباً للريح، بعد أن أصبحت الأرض بأثرها مسرحي، وأشجار الغابات أشجاري، وطيورها أصدقائي، وخيرات الطبيعة

مؤونتي، وكهوف سدرين كهفي"

"هل كان ما قصَصَتَهُ عليّ هو الحلم الذي زلزل إرادتك، وأحبط عزيمتك"

"لو كنتُ أرتعد من الأعاصير، وأهاب الزلازل، وأخشى على جسدي من لسعات الصقيع، وعلى نفسي من آلام الفراق، وعلى بطني من الجوع والظمأ، لما تركت بيتي، فهو أكثر أمناً من أيّ مكان آخر، لأن الخطر الذي تمثّل لي في حلمي، لم يكن يهدّد أركانه وسقفه، لم يهدّد بناءً من حجر، ولا سقفاً من حديد، إنّما يهدّد بناءً آخر، أحسّ به، ولا أراه، أذوب فيه، يذوب فيّ، فلا أقبض عليه.. في الوقت الذي تهبّ فيه رياح قادمة من جهات أربع، وزِد عليهما اثنتين، آمل ألاّ تتهاوى أمامها صخور جبل شان"

"تقصد الجهات التي أعرفها ؟"

ضحك الفلاّح حتّى كاد يستلقي على قفاه، وهو يتأمّل البراءة في وجه شامان، ويلمسها في حديثه، بينما كان شامان مندهشاً من حديث الفلاّح، وهو بين مصدّق ومكذّب ما يسمعه من كلام، أبداً لم يكن يتوقّع سماعه في أيّ يوم من الأيام.

اليوم، تدرك بقرتي أنّني منافق كبير .!

قدّم له كيساً محشوّاً بالتبغ، شكره شامان قائلاً: "لم يحدث أن رأيت سيجارة بين شفتيّ معلمي"

"ألهذا لم تجرّب تبغي؟"

"ربّما، كان ذلك واحداً من الأسباب التي جعلتني لا أُدخّن، ولا أتعاطى مسكراً "

فجأة، امتقع وجه الفلاح، انتابته نوبة عطاس شديدة.. سال أنفه، دمعت عيناه، راح يمسح وجهه الرطب بكمّي سترته القصيرين، بينما كان شامان يقف مندهشاً من هول نوبة عطاس أرهقت الفلاّح، ودفعته لمغادرة مكانه إلى ظلّ صخرة مجاورة، هناك حيث قطف رؤوس بعض الحشائش الخضراء، عاد وهو يفركها بين كفّيه، يشمّها بعمق، للتوّ بدأ دمع عينيه بالتجفاف، وعاد لوجنتيه لونهما.

"قد لا تصدّقني لو قلت لك. إنّ بقرتي هي التي عرّفتني بهذه الأعشاب، ها أنا أطيعها، أحفظ درسي جيّداً.. قد لا أحزن على فراق مخلوق في هذه الدنيا أكثر من حزني على فراق بقرتي.

كانت تعتقد أنّني أفهم، أستوعب منها كلّ ما تقوله، اليوم، ستدرك أنّني لا أفهم شيئاً من دروسها، أو أنّني منافق كبير، مستهتر، ناكر للجميل، هي لم تقل شيئاً عندما خرجتُ أمام عينيها، مقرّراً ألاّ أعود أبداً.. لكنّ دموعها السخيّة فضحت كلّ سرّ كتمته في صدرها.

كانت المرّة الأولى التي لا أهتمّ بها، عزائي في أختي، فلن تبخل عليها بعلف وماء، وعزاء بقرتي في أنّني لا أطيق الفراق طويلاً.

ربّما يدهشك ما يستهويني في هذه اللحظات، ستقول: " مجنون! قل ما تشاء، انظر، واسمع إذاً! للتوّ سأحقّق رغبتي.

فجأة، راح يقفز كالأرنب، يعوي كالثعلب، وبسرعة يدور حول شامان، بينما كان الشاب يتابعه بعينين مندهشتين، وهو يصيخ السمع إلى عواء يشبه إلى حدٍّ بعيد عواء ثعالب جبل شان.

برهة، توقّف الرجل عن الدوران والعواء، ساد صمت رهيب، لم يملك شامان الجرأة على التّحدّث إليه ومحاورته، كان يتساءل مندهشاً من كائن خرج هكذا من جلده!؟

"لديك كلّ الحقّ أن تخافني، وتتقزّز نفسك من رؤيتي، وسماع صوتي، في جبل شان ترى العجائب التي لم تأت الكتب على ذكرها، وتسمع ما لا يتوقّع أحد في المعمورة سماعه.

هل تريد أن تخرج من جبل شان من غير امتحان، لكن.. أيّ امتحان! تصوّر أن كلّ من يأتي إلى جبل شان يمتحنُ بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة التي يمتحن بها آخر، طبعاً يُهمس بسؤال في إحدى أذنيه، حتّى لا تكاد تسمع السؤال أذنه الأخرى.

رهيب من وضع نموذج هكذا أسئلة، هنا من يقول كان أزرق العظم، بعد لأي عثرنا على قبره، نبشناه، فوجئنا بعدم وجود أثر.

لديك مبرّر للسؤال: " لماذا لم يتحدّث صديقك الفلاّح بلغة الحمير؟!

"طبعاَ نحن بعيدون عن سدرين، ما عدت أخشاهم، اطمئن! لا يسمعنا أحد في هذه الغابة، اسأل ما شئت، صفني بما تشتهي، لن أسمح لك قبل الإعراب عن أسفي لما أُلصق بصوت الحمار من صفات سيّئة! الحمار من أكثر الحيوانات صبراً وقناعة وألفة، تصوّر أنّه لا يأكل لحماَ، أليست هذه الميّزة كفيلة برفع صفة البشاعة عن صوته.

لما كُسرت إحدى قائمتيه الخلفيتين، قال خالي" كسور الحمير لا تجبر، خذوا الحمار، وارموا به في وادي الضباع، فالضباع تعرف شغلها معه "صباحاً كان الحمار ينهق أمام باب دار خالي، بعد أن عاد على ثلاث قوائم من وادي الضباع. ليخدم خالي طويلاً بعد أن جبرت قائمته من غير أن يتدخّل مبضع الجرّاح، أو مجبّر الكسور.

يومئذٍ، كدت لا أصدّق زوجة خالي لما أخبرتني بأنّ بقرتها لم تنم ليلة غياب الحمار عن الزريبة، وأقسمت لي بربّ شجرة الصنوبر إنّ قطرة حليب واحدة لم تخرج من ضروع البقرة، ولم يسكت لها خوار حتّى قفل الحمار عائداً من وادي الضباع.

أهكذا، يتغيّر الناس سريعاً.؟!

كان بمقدور شامان مجاملة صديقه الفلاّح، بالاستماع إلى قصصه الطويلة، حيث لا يوجد ما يمنعهما من الثرثرة حتّى الصباح، برهةً .. نأى بعينيه عنه، الأمر الذي أثار غضبه، فأعطاه ظهره منطلقاً نحو الغابة، لحق به شامان معتذراً، فلم يفلح في إقناعه .

توارى خلف أشجار الغابة الكثيفة، بينما كانت خيوط الشمس الحريرية تنسحب بهدوء عن الأودية والهضاب، لتضمّ بشوق أمواج البحر العارية.

مساءً، لما كان شامان يأخذ من يد الشقراء ذات الضفيرتين كوب الشاي، ارتجفت يداه، كاد الكوب يسقط من بين أصابعه، نظر في عينيها، نظرت في عينيه، وراءها لم ير صحارى، بل رأى نخيلاً، تأمّل مليّاً أصابعها الطويلة الناعمة، وهي تقبض بخفر على الكوب، قالت:

"اليوم، أنت مختلف يا شامان!"

استطرد شامان محدّثاً الفتاة:

"حاولت ألاّ أكون هكذا، أدهشني الرجل، أين ذهب يا ترى؟! كيف ينام؟ أيحدث هذا في جبل شان؟"

"لا أفهمك يا شامان، من تقصد بكلامك، أو بماذا تهذي؟"

"الفلاّح يا عزيزتي، ذاك الذي صادفته اليوم، أعرفه منذ قدومي إلى سدرين، تغيّر كثيراً، أهكذا سريعاً يتغيّر الناس؟"

هي قصّة أخرى يسوّقها اليوم شامان، بدا أفضل من أمس، وستغدو

حالته النفسّية أكثر استقراراً خلال الأيام المقبلة، صحيح أنّ أهل سدرين جميعهم تعرّضوا للخطر نفسه، لكنّهم معنيّون بالحالة، وقد أعدّ لهم حكيمهم العدّة، سقاهم شراباً يسهّل عليهم نسيان ما حدث.

"مضى لك زمن طويل لم تحدّثني عن صديقك الراعي، وكلبه، وأغنامه، وعصاه."

"أتعلمين ماذا قال لي الراعي ذات يوم؟"

"من أين لي أن أعلم، إن لم تقُل"

"أشكّ بمقولة إن الإنسان المطرود من السماء كان قد هبط بأسنانه، فهو لم يهبط لسبب قضمه التفّاحة، بل لقطفِها، فِعْلُ الأكل لم يتمّ في السماء، بل تمّ فعلاً على الأرض، فأيّ مصلحة في خلق الأسنان، نبحث عن أصحاب هذه المصلحة، نعثر على أسمائهم في تأويل رسالة محفوظة في مخطوطات كهف سدرين، وحدها تملك الإجابة، تماماً وتشير إليهم!"

سررت كثيراً لِما سمعته من فم الراعي، هذا يعني أنّه سيرافقني، ويشاركني البحث والتقصّي عن الكهف المعجزة.

"أنتَ ماذا تقول؟ "سألتْ الفتاة.

" ما تقوله أحلامي، ولا أُتعب نفسي في الإجابة على أسئلة تأتيني أجوبتها جاهزة بعد برهة من النوم "

"ماذا قالت لك أحلامك ؟!"

"بعد أيام الذبح العظيمة، رأيتُ حكيم سدرين يتقدّم من بقي على قيد

الحياة من أهلها، وليس في فم أحد منهم سنٌّ واحدة"

"أفهم من كلامك أنّهم عادوا إلى طبيعتهم الأولى"

"نعم هذا إذا صدق كلام الراعي"

"ونبوءتك، أيضاً!"

ابتسم شامان، راح يرتشف كوب الشاي، بينما كانت يداه ترتجفان، وقلبه.. بشدّة يخفق في صدره، وقد بدا عليه الاعياء والنعاس والقلق.

"في تالي الأيام، لن ننعم بأكثر من الماء، الخوف كلّه على الغدران التي أصبحت مسألة حمايتها أمانة في عنقي"

قالت الفتاة:

"لن يتأخر الأمر، سيسرع صاحب المصلحة في إعادة الأسنان إلى أفواه الناس، سيجتهد كثيراً، ويجرّب طويلاً.. منفقاً الكثير من رأس ماله على إنتاج أسنان أكثر صلابة وقوّة وحدّة من سابقتها، أم كنت تظنّ أن اجتماع أهل الجبل فاغرو الأفواه، ليعودوا كما كانوا ؟!"

لمن حدّاك أيّتها السكين.؟

يا أهل سدرين، يا كائنات جبل شان المأسوف عليها، لما قلت لكم توقّفوا عن ذبح الخراف، واصطياد الطيور، سخرتم من أقوالي، فأطلقتم العنان لسكاكينكم وبنادقكم ونيرانكم، تذبح، تقتل، تحرق ..كلّ ذلك كي تملأوا بطونكم لحماً وشحماً ودماً، وتعفّروا أرواحكم بالرماد، وتُرضوا أطماعاً لا تتوقّف عند حدٍّ.

قلت لكم:

لا تتركوا أولادكم يشهدون على أفعالكم المرعبة، أو يرون أياديكم ملطّخة بدماء الخراف والطيور، لن ينسوا أبداً أن أسلافهم قتلة.

قلت لكم:

الدماء التي تسيل بين أرجلكم، وعلى عتبات بيوتكم لن تشفي مرضاكم، ولن تجعل بيوتكم آمنة، ولا عيشكم رغيداً، فأيّ وهم يغريكم كي تريقوها.

قلت لكم:

قطرات الدم التي تطبعونها على جباه أطفالكم تسكنها أرواح أضاحي بريئة، لا تلبث أن تغدو كوابيس مرعبة في الليل، وذكريات مريرة في النهار.

رجوتكم أن تُطفئوا ناراً أضرمتها أحقادكم، ليس إلاّ لتعمر قلوبكم بالمحبّة، وتزهر ضمائركم بالسلام، كم رجوتكم أن تُبقوا هواء جبل شان

نقيّاً من رائحة الشواء.

آخٍ.. يا أهل جبل شان كم أنتم ماضون في استهتاركم بالوقت، أنا من يعرفكم جيّداً، سرحت بأغنامكم وعنزكم وبقركم، فوجدتكم أكثر ذبحاً لها، ونهشاً في لحومها من الذئاب والضباع والدببة، كنت ساذجاً.. أسمّنها، أجري وراءها، أحميها من أنياب الوحوش المفترسة، أخيراً .. لتنتزعوها من قطيعي فتنحرونها قرابين على عتبات شهواتكم، أو على مرأى من شاهدات مقابركم، وبلاط معابدكم، تطربون وأشقى. تشبعون فأجوع.

ما خجلت منكم، ولا خشيت لما عبّرت لكم عن جهلي:" لا أفهم لماذا يجب عليّ أن أَذبح كائناً كي أنام قرير العين، فأيّ معلّم أوصل إليكم رسالة السيف والدم، السكين والرقبة. الظهر والخنجر. لما سألت السكين:

"لمن حدّاك أيّتها السكين"

أجابت:

"حدٌّ لي.. وحدٌّ لي"

كنت شريككم في كلّ جريمة اقترفتموها، ليس لأنّني ذبحتُ كما ذبحتم، أو اصطدت كما اصطدتم، أنا على يقين من كوني لم أذبح عصفوراً في حياتي، لم أصطده، لم أحمل سكيناً.

ألم أقل لكم أمام حكيم سدرين في مهرجان قطاف العسل من يحمل آلة حادة ليس بذي إرادة قويّة، ليس شجاعاً، القاتل يا أهل سدرين أضعف

بكثير من المقتول، والمظلوم أقوى بكثير من الظالم، أنا راعي مواشيكم، لا أريد أن أكون ضعيفاً، كما لا أريد أن أغدو ظالماً، وإلاّ ما كنت لأعيش سنين طويلة من دون مرض، أو وجل، وأنام من دون كوابيس، أو قلق.

يا أهل سدرين، يا أبناء الجبل المجبول من ترابه طين جسدي أكرهكم جميعاً! أحبّكم جميعاً! لا تسألوني كيف! لستُ إلاّ واحداً منكم، ولستم سوى جميعكم منّي، أيُّ شيطانٍ فعلَ فينا فعلته؟ أيُّ ملاكٍ أشاح ببصره عنكم؟ هل نحن من عرفتهم في ذاكرة أبي وأمّي؟ أم نحن إرث شواهد مزروعة تحت أشجار مقابركم؟

لم أكن شاهداً على ما رأيت، ولن أكون المشهود ، لا قيمة لشهادتي أمام من لا يحتفي بها. فلماذا تصرّون على أن يُدلي راع مثلي بشهادته؟ هو القبح عينه، لن أقولَ لكم كيف أُدلي، أو لماذا أُدلي بشهادتي.

أأشهد على ذبح خرافي ، أم تشهد خرافي على ذبح أحلامي؟

أيّتها الريح الملعونة توقّفي عن الصفير في ثقوب سيقان أشجار ذاكرتي، أيّتها الأمواج النازفة شماتة وحقداً، آن لك أن تهدئي وتتجمّلي عند كلّ مغيب!

وأنتَ أيُّها الظلام الذي لا يرعوي! إلى متى تحاصر شمعة روحي الدامعة تسألني؟

أجيبك:

بكلِّ ما في داخلي من حزن، وتعرٍّ، من وجع وغثيان، من تبصّر

وهذيان. أقول لك:

"بين ليلة وضحاها اختلف الأمر، لا عجب أن يختلف الأمر عليك يا شامان، هل عرفتني، أنا صديقك الراعي بشحمه، ولحمه، أتذكرني جيّداً ؟ أنت متعب يا شامان، لم تخرج لمصافحتي، لم تتقدّم لعناقي؟ لم تسألني أين كنت، لماذا انقطعت عنّي أخبارك، لم تقل لي إذا حصلت على مبتغاك، وعثرت على كهف سدرين، ذاك الذي يشفي، يُفرح، يمنح القوّة والإرادة، ويجلب الحظّ والسعادة.

تكلّم أيُها الرجل الذي غادر الصحراء، وجاء إلى هذا الجبل المشرئب حتى غرّة الغيوم، هل جئت معلّماً، أم جئت لتتعلّم أبجديات جديدة تخرج من كهوف مظلمة، لتدخل في كهوف ظالمة،

قل ذلك لا تخجل، في جسد كلٍّ منّا شياطين، وملائكة، عبيد، وأمراء، وأرواح موغلة في القدم، تزداد أعدادها كلّما أوغلنا في الهذيان.

ربّما في جسد كلّ منا رغبات حيّة تساوي أعداد النجوم والكواكب في كونٍ يتّسع وجعاً بعد وجع.

أنا لم أدرس علم الفلك، ولم ينبئني أحد بأسرار المجرّات، لكنّ تأمّلي الطويل في هذه السماء جعل الأرواح التي تلازمني مطمئنة كثيراً على مصيرها.

قل لي بربّك أيّ مصير ينتظر جسداً يتقطّع في وضح النهار ، وكيف تطمئن على مصيرها ما تستوطنه من حيوات؟!

من هم القادمون .؟

"هل جرّبت النوم في الغابة؟" سأل الفلاّح شامان.

"طبعاً، لم أحاول بعد، ما الضرورة إلى ذلك، مادام في سدرين مكان لسكناي، ناهيك عن أنّني لا أملك جرأة المكوث ليلاً في الغابة، أنت أعلم منّي بأنّ في مجاهلها وحوشاً كثيرة، لا تكاد تغرب الشمس، حتّى تخرج وتنقضّ عليّ، فتفتك بي كما فتكت بالكثيرين من أمثالي، اولئك الذين جاؤوا يبحثون عن كهف سدرين"

أطلق الفلاّح ضحكة عالية، وهو ينظر في عيني شامان، اللتين انصرفتا للنظر في اتجاه طريق العودة إلى القرية، سأله: "هل أنت متأكّد من أنّ وحوش الغابة، هي التي فتكت بزوّار سدرين، ما أدراك أن زوّار سدرين هم أنفسهم مَن فتكوا بوحوش الغابة؟!"

"لست متأكّداً، لكن .!"

"هوّن عليك يا رجل!"

"تقصد.. هم أنفسهم أكثر افتراساً من حيوانات الغابة !"

"يبدو لي أنّك لا تطيق المزاح.. عفوك صديقي"

"بدأت أصدّق أنّ الرجل المزروع أمامي أهلّ لحراسة الغابة، كما هو أهل للاحتفاء بضيوف سدرين"

بينما كان شامان يسأل نفسه، ما لا يستطيع أن يسأله للفلاّح:

"أحتار في أمركم يا أهل سدرين، من أنتم؟ من أين جئتم؟ كيف يمكن

للمرء أن يفهمكم! أحياناً، أجد نفسي قابضاً على هويّتكم وأحياناً أخرى، أجدكم أبعد عنّي من أبعد نجم في السماء، حاضرون أنتم، غائبون أنتم، مثل...!"

من ثمّ استطرد الفلاّح: "لا تكمل، لا تكمل! أفهمك جيّداً، لتصبح أكثر إحاطة بما يدور حولنا، فتّش من فضلك عن أغصان يابسة، احضرها! سأغيب دقائق قليلة، ثمّ أعود إليك"

"أتتركني لوحوش الغابة، يا صديقي!"

قفز بين الحجارة منحدراً باتجاه الوادي، تركت الأشجار الكثيفة ظلالها عليه بعد أن مالت شمس جبل شان للمغيب، في حين شرع شامان بجمع الأغصان والأوراق اليابسة من تحت الأشجار المنتشرة فوق الهضبة، غير عالم بما يرمي إليه الفلاح، لحظة.. سمع صرير باب يُفتح، تبعه صياح ديك، وأصوات أجنحة ترفرف، من ثمّ عاد السكون ليخيّم على الهضبة والوادي.

دهش شامان من رؤية الفلاّح قابضاً بيد على ديك كبير، وبالأخرى قابضاً على كبس من قنّب.

"كلّ شيء على أتمّه، اللحم، البطاطا، البندورة، الفليفلة، البصل، الزيت، الملح، الخل، الليمون، النعناع، البقدونس، العجين، اطمئن! لن نكون وحيدين، لكنّني أشكّ في أن ما جمعته من أغصان بكافٍ.. لا بأس يا صديقي، سيتولّون المهمّة، لديهم منشار، وسيكون من السهل عليهم توفير ما يلزمنا من حطب"

"لا أفهمك يا صديقي، ماذا تريد فعله، من هم القادمون؟ عاد الناس إلى بيوتهم، ما علينا سوى الإسراع في العودة قبل المغيب"

"أن تسأل عن شيء لا تعلمه، هو حقّك، أمّا أن تخاف العتمة، فهذا ما لا أتوقّعه منك، الإيمان بالزوال شرط من شروط العثور على كهف سدرين، ما من أحد يصحُّ إيمانه بالولادة، إن لم يؤمن بالزوال، بالنسبة إليّ لا أنام وقت غروب الشمس، ولا بعد شروقها، كلّ غياب يعني بالنسبة إليّ شيئاً، وكلّ حضور أيضاً، في تراب هذا الحقل عملت طويلاً، سكّة محراثي محترمةً وعدها، لك أن تتخيّل كم يكون اللقاء حارّاً عند كلّ حضور، وكم يكون العطاء مضاعفاً عند القطاف، حين أنظر إليها وهي تسطّر أثلاماً على صفحات حقلي، أشعر بنشوة عظيمة، ها أنا أتحوّل إلى قارورة عطر، تتوق إلى عابر سبيل، يفتحها، يرشّها فوق كلّ ولادة لهذا التراب، عندئذ، ليس بالضرورة أن يسأل أحدنا الآخر، ممّ تشكّلتَ، وكيف؟!"

"تدهشني، تتعثّر عباراتي في وصفك، ساعدني كي أجد لك اسماً، ما أراه من أفعالك يختلف تماماً عمّا أسمعه من كلامك، اسمح لي أن أدعوك فيلسوف جبل شان"

"في جبل شان كثير من الحكماء والفلاسفة، لا تحاول أن تضيف إلى معجمهم اسماً جديداً، تعال معي نحضّر الموقد، ونضرم النار، لن يأتوا قبل أن يروا ألسنة اللهب بأمّهات أعينهم، يجدر بنا ألاّ نتخلّف عنهم، أو نخالفهم في أمر، لئلاّ تصيبك سهامهم، خذ ديك الحبش هذا، اربطه

على ساق الشجرة، وبادر إلى ذبحه حين مجيئهم، سترى كلّ واحد منهم مثقلاً بالأحمال، وقد اصطحب ذبيحته"

وزّع الاثنان الأعمال بينهما، بعد أن أزالا الحصى، وكنسا الساحة من أوراق الأشجار، واقتلعا الحشائش الخضراء، أبعداها عن المكان، حيث تولّى الفلاح إضرام نار، ما لبثت أن استعرت، وتسلّق الدخان على سلالم العتمة، بينما كانت تُرى مصابيح سدرين من أعلى قمّة في الجبل، وقد احتلها رجلان متحابّان.

التفت الفلاّح إلى شامان طالباً منه رفع حجارة، شكّلت هرماً فوق جدار، كان الرجلان واقفين بقربه، تعجّب في نفسه من طلب صديقه، لكنّه لم يظهر له ما انطوى في نفسه من استغراب، ولم يتأفّف من عمل أوكله إليه، سأله بسرور: "هل نحن ساعيان لاستخراج كنز من بين حجارتك هذه؟"

"أهمّ بكثير من كنز" وتوقّف عن الكلام.

"مدهش أنت يا صديقي، أظنّني غير قادر على الاستمرار في ما أوكلته إليّ من عمل، سأستعين بياقوتتي ، فهل أنا الآن أمام كهف سدرين، الذي يشاع عنه ما يشاع من فكِّ طلاسم وسحر، وخلق ما ليس بحسبان؟" "اذهب أينما شئت، اطلق لخيالك العنان، كلّ شيء جدير بالملاحظة، ليس من طينة واحدة خالية من ماء الكذب، ولا من طينة واحدة خالية من ماء الصدق، من الصعب على واحدنا فرز حبّة كذب عن حبّة صدق على بيدر من ظلام"

كـان شـامان يصيـخ السـمع جيّداً لحـديث الفـلاّح الـذي أردف كلامـه بضـحكة مدوّيـة، قـال في نفسـه: "سيكون يـومي الأخـير في سـدرين، مـا أوكله الفـلاّح إليّ من عمـل، ليس سوى فتح بـاب الكهـف الموعـود، ومـا إضرامه النـار، وتحضير مـا لديه من مـأكولات، واهتمامه بمن سيأتون إلاّ تعبيراً عـن صـيرورة حـدث مهـمّ، ولا أهـمّ في اعتقـادي مـن العثـور علـى كهف سدرين"

بينمـا كـان الفـلاّح يوهم شـامان بانشغاله في تحضير المائدة، كـان شـامان منهمكـاً في رفـع الحجـارة، فجـأة.. انتبـه إلى وجـود فـأس ورفـش، تراجـع قليلاً عن الجدار مندهشاً من وجود أداتين كاد يأكلهما الصدأ.

"هل حصل لك مكروه يا شامان، لا أسمع لك صوتاً" سأل الفلاّح.

"وجدته يا صديقي!"

"ماذا وجدت يا شامان؟"

"الكنز!"

"دعني أرى!" جـاء الفـلاّح مسرعـاً، وقـف علـى مقربـة مـن شـامان متعجّبـاً مـن سـرعته في إنجـاز العمـل، لكـن مـا إن رأى المعـول والـرفش مركـونين بجانبـه، حـتى أطلـق ضـحكة عاليـة دوى بهـا المكـان، قـائلاً: "نحـن نمشـي علـى الصـراط، كـلّ مـا فعلتـه كـان صـحيحاً، هـي ذي نقطـة البـدء، أمّـا هاتـــان الأداتـــان فهمـــا الوســـيلتان الوحيـــدتان اللتـــان يمكننـــا الوصـــول بواسطتهما إلى الهدف، تابع يا شـامان! لا تشغل نفسك بما لا يفيد في شيء، إنّهم قادمون، وينبغي الاحتفاء بالقادمين"

ربّما يتعرّفون على كهفهم

أيّ سحر تملّكني، شلّ إرادتي، قوّض رغباتي، كنت على موعد مع صاحب معمل الصابون، وآخر مع حارس الغابة، وابنته الشقراء ذات الضفيرتين، نكثتُ بوعودي، غدوت أسيراً لإرادة فلاّح ومعول ورفش، منهمكاً في عمل، لم اعتدِ القيام به، أحفر التراب، أرفعه بعناية، أضعه جانباً، غير عالم إلى أين أنا ذاهب في أشغالي، ما الغاية من رفع جدار من مكانه، من فتح خندق على عرض الجدار المرفوع، بينما كانت نار الموقد تضطرم بشدّة وتستعر، وجمراتها تتلظّى وتتّقد، حتّى كادت ألسنة اللهب تأكل رؤوس أغصان الأشجار المجاورة، في الوقت الذي كان الفلاّح منهمكاً بإعداد طعام العشاء، كما لو أنّ أمري لا يعنيه في شيء.

كان العمل شاقّاً على شاب غير مجرَّب، لكنّ القوّة سكنتني، سرت في عضلات ساعديّ وساقيّ، كانت مجهولة المصدر، ما من شكّ أن ياقوتتي واحدة من مصادر هذه الطاقة. استدرت متفحّصاً الجهات الستّ متوقّعاً رؤية جنود، يعرجون من السماء، أو يطلعون من الأعماق لمساعدتي في ما حسبته اختباراً، غالباً ما أُجزى عليه.

لما وثقت من أنّ ما تخيّلته لم يكن سوى وهم في وهم، أغمضت عينيّ، فتحتهما من جديد، خرجت من الحفرة مستطلعاً المكان والدروب المؤدّية إليه، لم أسمع خرير ماء الغدير المجاور، شربه صوت فلاّح أدهشني بشدوٍ

جميل لأغنية شعبيّة، ما سمعتها سوى مرّة من حارس الغابة.

أنهكني التعب، جلست أستريح برهةً، أتفحّص ثيابي المعفّرة بالتراب، والمبلّلة بالعرق، شردت برهة في بعض شأني، سرقني الكرى من شرودي القصير، رفعت رأسي ثانية، لأجد الفلاّح يضع بين يديّ إبريق ماء، حينها، كنت بحاجة إلى ما يطفئ في أحشائي ما هو أحرّ بكثير من جمرات الموقد.

ربّما كان الفلاّح يصعّب عليّ أسئلته، وقد آن الأوان كي يخلّصني ممّا أنا فيه من معاناة وقلق، شكرته على الماء الّذي أطفأ ظمأي، وعلى الأغنية الّتي حملتني إلى حيث كنت أتمنّى المكوث طويلاً.

أخبرني أنّ الله لم يرزقه ولداً، كيف يرزقه؟ هو لم يتزوّج بعد – النساء بلاء أعظم – قرّر أن يرفع جداراً يصدّ زحف هذا البلاء نحوه، تزوّج أبوه، وعمّه، وخاله – هي عادة – جرى عليها كثير من الرجال والنساء، ينجبون أولاداً، الرجل مرهون لزوجته، الزوجة رهينة لزوجها، الزوجان رهينان لدى الأولاد، ومن ثمّ الأحفاد، الأولاد والأحفاد في صراع دائم مع الآباء والأجداد، سلسلة من عذابات، تكاد لا تنتهي.

أراد كسر قالب إذعان مقيت لعادة لبست عباءة القدسيّة، وانطلق متسائلاً: لماذا لا يكون مختلفاً، الجسد جسده، وهو أولى به من غيره، من يستطيع منعه من ممارسة ما لا يؤذي الناس، طبعاً! هو ليس مديناً لأحد، ولا مداناً، بيته مختلف عن سائر بيوت القرية، بقرته مختلفة أيضاً عن أبقار القرية، حتّى حقوله، أشجاره، طريقة نومه، يقظته، مأكله،

مشربه. ما أجمل أن تكون مختلفاً! ما أروع أن تضحك من على قمّة خضراء بينما ما برحوا غافلين، يسلكون دروبهم المألوفة.

كان يحكي لي، وهو منتشٍ كقائد عسكريّ عاد لتوّه من معركة حامية الوطيس، من دون أن يخسر أحداً من عساكره، يذهب كلّ ثلاثاء إلى جفنات ريحان طالعة في أقصى شمال الغابة، يقتطع حزمة من اغصانها، ينعطف نحو المقبرة، يضرم النار، يحرق البخور، يضع على قبر أبيه أغصان الريحان، يترحّم على روحه، ربّما فهِمه الأب أكثر ممّا فهِمه الآخرون من أقاربه.

"أنتَ كريم، شجاع، صادق، حسّاس يا (ميخا) احذر ما يُفقر الكريم، يُضعف الشجاع، يجعل الصادق كاذباً، يُخرِج المرء عن طوره"

كلّما نصحه أحدهم بالزواج، كان يسأل نفسه، لماذا قال لي أبي ذلك يوماً، أبي لم يقل لي لا تتزوج، أوصاني بما يجعلني أتأمّل، وأفكّر، هذا يعني أنّه اختار لي الحريّة مذهباً، الحريّة التي لا تؤذي أحداً، إنّما تغيّر الدرب، وتسدّ باب الفتنة.

أقسم بشفيعي، وبربّ هذه الغابة على أنّني كنت بارّاً بوالديّ، الله يعلم كم كنت أحترمهما، وأشفق عليهما، تذوّقت كثيراً من الملذات، لكنّ إحساسي بهما، كان أعظمها، لذلك أردّ كلّ ما أتاني من خير وصحّة وسلام، إلى انصهاري العفوي بحبّهما.

يعجبون من مكوثي الطويل في هذا الحقل، ومن اهتمامي به أكثر من اهتمامي بما ورثته من حقول سواه، هم لا يعرفون أنّ آخر رائحة لعرقه

وأنفاسه تركها بين أشجاره، وأنّ آخر صورة لوجهه الكريم الباسم محفورة على كلّ حجرة من حجارة جدرانه، ترك لي كلّ هذا، ومن ثمّ مات، نعم مات يا صديقي، هكذا يموت الشرفاء! اولئك الذين يأكلون بعرق جباههم، وكل يوم تكون ثيابهم معفرة بالتراب، وأنفاسهم مضمّخة بالحقيقة، تخلّوا عنه، ذهبوا إلى نسائهم، وأولادهم، وعادوا إلى هموم حاكوا شباكها بأصابع أيديهم.

يتعجّب : ما أسخف أن يحوك المرء قميص عذاباته بأصابعه، ومن ثمّ يطلب العون والرحمة، ويستطرد!

يأتون من المدينة، يجنون ثمار ما غرسته وبذرته، ويعودون محمّلين دون أن يرمون عليّ السلاّم.

في هذا الحقل جلسنا لآخر مرّة، كنّا متعبين، لكنّ السرور كان بادياً على أساريرنا، خضنا طيلة النهار في أحاديث شتّى، دون أن يعلم أحدنا بأنّه مفارق، لذلك تجدني أحياناً لا أقول لك إلى اللقاء، هذا أفضل، اللقاء المثالي ليس على هذه الأرض يا صديقي، لا! عفواً، لماذا ليس على هذه الأرض، المشكلة ليست مع هذه الارض، أو سواها من أمكنة.. المشكلة يا صديقي معهم، نعم! مع النساء، والأولاد، مع هذه السلال من الفتن.

يومها كان بودّي البقاء في الحقل، على الرغم من التعب الشديد الذي غمرنا بعد ساعات طويلة من نبش الجدار، وفتح الحفرة، ومن ثم دفن ثمرة تعبنا خلال ثلاثة أيام متتالية.

أخيراً، أقنعته بالعودة إلى القرية، عدنا متأخرين، في طريق العودة، لم نصادف أحداً، لما سألته، لماذا فضّلت هذه الطريقة، ألم يكن من الأفضل أن نسلك دروباً سلكها الجميع؟

قليلاً، أبطأ الخطى، استدار نحوي، قائلاً "ربّما تكون الأخيرة، فأردت أن يكون لها معنىً مختلفاً"

أخذت أجامله قائلاً " لم تزل شاباً يا أبي، طول العمر لك، ما كنت أظنّك حاسباً للموت أيّ حساب، ماذا دهاك، ثمّ ألا تنتظر حتّى تنضج ثمار أتعابك؟ لا تنس أنّها ثلاثة أيام من العناء، فهل كانت سدرين محتاجة إلى كهف آخر"

نظر إليّ بعينين تملؤهما الشفقة والحيرة، قائلاً:

"اسمع يا ميخا! الجبل وطننا الأوّل والأخير- نحن أبناؤه – مرصودون لكهوف شتّى. كلّ من تراه في سدرين يقول لك: "كهوف سدرين!" كهوف سدرين شغلت العالم بأسره، أو أن العالم اشتغلها ليشغل بها من ليس لديهم شغل، الحقيقة أنّ كلّ منزل في سدرين يدّعي أن كهفه أفضل الكهوف، نظيف، مضاء، خالٍ من الحشرات والرطوبة والعفن، طبعاً لو دخلت إلى أعماق كلّ واحد من سكّان هذه المنازل، لوجدته مصطحباً كهفه إلى حيث ينام ، تصوّر! كيف يتوسّد المرء وسادة رطبة عفنة، وهو على يقين من أنّ وسادته الحقيقية على مرمى زهرتين أو أكثر من الضوء؟!"

كلمات بسيطة.. كانت تخرج من فمه مفعمة بالتحسّر والالم، فكأنّما

هي مسجونة في قعر بئر، وقد قُيّض لها النجاة، ثم استطرد :

"انظر! ماذا ترى هناك؟ الأمر لا يحتاج إلى ايضاح! لما اشتغلت في مالطة، قابلت الكثيرين منهم، كانوا قادة وجنوداً، مهندسين، أطباء، عاملين، عاملات، بحارة، وكانوا يتبعون لمدمّرتين تجوبان هذا البحر الآسن.. الزاخر ببول الماضي وبرازه، بفضلاته وعفنه، بكبريائه وجبروته، بجشعه وسخطه، بهشاشته وريائه، بنفاقه وخداعه.

كانوا مخلصين لشهواتهم أكثر ممّا كانوا مخلصين لأوطانهم، وكانوا ينتمون لأحقادهم، لأهوائهم، لأمزجتهم، أكثر من انتمائهم لإنسانيتهم، وكنت واحداً من الصيادين الأكثر معرفة بالأسماك، أعمل عاماً مع هؤلاء، وآخر مع اولئك.

لم أقرأ في كتبهم، ولم أعطهم معولي كي يفتحوا به كهفاً، كانت زعامات سدرين تأتي صاغرة إلى هاتين المدمّرتين، لم يكن يعرفني منهم أحد، غُرمت بالبحر صغيراً، وأجدت لغة الكبار، رأيتهم على حقيقتهم، وهم يضعون رموزاً لهذه الكهوف، يكتبونها على وقع دقّ الأقداح، وأمام عُري المومسات.. لكلّ رمز منها قرون وأنياب وأظافر.

بعد عقود، لما عدت إلى سدرين، فاتحت بالأمر أبي، كان مختلفاً، كان رجلاً بكلّ ما تتصف به الرجولة من سجايا. قال إنّها الحقيقة، لكن من يتطلّع إلى عينيها، مادام لكلّ امرئ مطمع من صيرورة كهفه، من هو صاحب المصلحة في الإشارة؟!

البائع الجوال، ذاك الفتى الساذج، تراه متنقّلاً من مكان إلى آخر، صاعداً

جبلاً، نازلاً وادٍ، وعلى كتفه كيس الخرز، يريد أن يوصد أبواب كهوف سدرين، بماذا.!

طوبى لامرأة من بين نساء ونساء، بادرت لإغلاق أبواب كهوف سدرين، لكنها أضعف من أن تستطيع، لأنّ ما فُتح بالفولاذ لا يُغلق بالأمنيات، وبمناديل النسوة وخرزهن، ولا بعظيم ابتهال.

لّما أدركت أنّ أهل سدرين مرتاحون إلى كهوفهم وأضاحيهم، أخلصت لأولادي، وأقربائي، لكن.. لما تخلى عنّي أولادي، وأهلي، أخلصت لبقرتي فحرّرتها.

أنا متعب منذ أكثر من شهر، وكلّ يوم يمرّ من عمري، ولا أخلص فيه لأحد، لا أحسبه مرّ أبداً، لذلك أخلصت لهذه العناقيد التي لم تجد من أحد يهتمّ بها، وما زلت أخلص لك، أنت الولد البار الذي كنت دائماً بجانبي.

أنت لا تؤمن بكلّ ما أخبرتك به، طبعاً لا أريد من أحد أن يكون نسخة – طبق الأصل – عنّي، ما كنتُ يوماً نسخة طبق الأصل عن أحد، وهذا ما جعلني غريباً في أهلي، ثمّ استطرد قائلاً:

"المنيّة تقترب بسرعة تفوق سرعة اقتراب هاتين المدمّرتين من شواطئ جزيرتنا، لكن ما قمت بدفنه في الحفرة التي فتحناها معاً، ولم تعرِف ماهيته، أوصيك بفتحه في الوقت الذي تؤمن فيه بكلّ ما قلته لك من دون أن يخامرك أدنى شكّ أو ريب، ولا تنس أن توزّع الغنيمة على بيوت سدرين، وقتئذٍ، ربّما يتعرّفون على كهفهم الحقيقي.

هل تعرف الحساب؟

لم يبق بحوزة البائع الجوّال سوى خرزة واحدة، فقد انشغل زمناً طويلاً برمي خرزاته أمام كهوف مرّ بها، لم يفكر مطلقاً بالنظر إلى الوراء لأنّ أمله بالحصول على مكافأة السيّدة ومباركتها، استغرق كلّ تعبٍ عانى منه ووجع. لكنّه ظلّ متسائلاً:

كيف يعود ثانية إلى سلّته، هل سيجدها كما كانت، ما مدى مصداقية تلك السيّدة التي أذعن لرغباتها، لم يرها منذ ذلك الحين، أيجدُ خرزاتها وقد تحوّلت إلى جواهر.

بينما كان ينزل جبلاً محدّثاً نفسه، استوقفه غناء قادم من وراء الأكمة المقابلة، أصاخ السمع لصوت مضمّخ بالشجن، شعر برعبة في الغناء تسري في أوصاله.. تداعت في ذهنه صور مشهد ذلك اللقاء، وما دار بينه وبين المرأة من حوار.

"هل تعرف الحساب!"

"خرزات سلّتك من هذا الجبل!"

"ما سُرق شيء من هذا الجبل إلاّ عاد إليه"

في تلك اللحظة بالذات تمنّى لو كان لديه مرآة، مرّ عليه زمن لم يرَ وجهه، استطالت لحيته، واستطال شارباه وشعره، فقد استراحت خصل من شعره الأشقر فوق كتفيه، هو لم يخرج من كهف آواه، إنّما كان يغلق أبواب الكهوف، فماذا لو كان شامان أسيراً لكهف من هذه الكهوف.

"كم أنت ساذج يا أنا! وقعت في الشراك، وأغرتك امرأة بما لا يحصل إلاّ في الخيال، ما أدراك لو كانت ساحرة، أو كانت امرأة لعوباً، بضع كيلومترات تفصلك عن الحقيقة، تأهب للمفاجأة! وكن على قدر كبير من المسؤولية ما دمت راضياً في أن تكون أيامك متشابهة! فلم تنظر حولك، ولم يسترع انتباهك شيء من الذي حصل فوق جبل لا يوم فيه يشبه أخاه.

اللحظة المقبوضة

كان صديقي الراعي يُصيخ السمع لكلّ كلمة أقولها عن لقائي الأخير مع الفلاّح، وحين كنت أتوقّف عن الكلام، كان يرجوني المتابعة، وألاّ أهمل شيئاً مما سمعته من فم الرجل، كان حريصاً على ألاّ أسرّ في صدري شيئاً ممّا فعلناه بعد قيامنا بفتح الحفرة، ونبش ما كان أبوه قد دفنه فيها.

كنت نعساناً، مرهقاً، لكنّني كنت مصراً ألاّ أُفوت عليّ فرصة مشاهدته، والتّحدث إليه، بعد انقضاء زمن طويل على آخر لقاء جمعنا، ولما راودني شكّ بأنّنا لن نلتقي ثانية، ألححت عليه أن ينفخ في قصبه، إكراماً لحنيني إلى أيامنا الخوالي، ولجلساتنا فوق الرابية.

قال: "إنّه بدأ ينسى الكثير من الأغاني، بعد أن حدث لقطيعه وكلبه ما حدث، وإذا كان هناك من لحن يمكنه عزفه، فليس لديه أيّة مقدرة على استعادة ما يفرح القلب، ويحرّك الأطراف من ألحانه القديمة، ثمّ متى كان القصب يبوح بما يفرح القلب، أو يحرّك الأطراف، وهو الآلة الموسيقيّة التي لا يجاريها في البكاء والنحيب آلة أخرى.. أحْرى بالمرء أن يبكي طيلة أيامه الباقية بعد فراق أحبّته، ليس هناك من مسوّغ للمرء كي يُفرح الناس، وقلبه سقيم، وكرامته مجروحة، فلن يوَفّقَ في مسعاه، مهما كانت نيّته سليمة في إسعادهم، ومهما بذل من مجهود في هذا السبيل"

كنت أعلم أن طلبي مثير لأشجانه، فأنا محتاج لسماعه بعد معاناته الطويلة مع قطيعه، وغيابه مع نفسه، لاعتقادي بأنّني سأعيش طقساً

رومانسيّاً، من شأنه هدهدة روحي، وإراحة أعصابي بعد معاناة طويلة وسهر مضنٍ، تعلّمتُ من شاندرا أن يُشرق وجهي بالابتسامة، وألاّ أهتّم كثيراً للماضي، كانت تقول:

"ما بين الأصابع من لحظات أفضل ممّا في خارجها" قلتُ له:

"لست وحدك من فارق أحبّته، انظر إليّ فقد أكون شبيهك فيما حصل، لماذا لا نتناسى أوجاعنا.. نعيش سعداء في ما بقي لنا من لحظات عمرٍ قصير، أم أنّك نسيتني مع من نسيتهم من أهل سدرين، فلم أعد أخطر لك ببال؟!"

انفرجت شفتا الراعي عن ابتسامة طيّبة، قائلاً:

"ليس لديّ رغبة في رفض طلب لك، أنت جزء من تاريخ قطيعي وكلبي" توقّف قليلاً عن الكلام، ثمّ استطرد مؤكّداً لي:

"سأبقى مخلصاً لك بقدر إخلاصي لهما، لكن حذار أن تعتب عليّ ، لو سمعت من قصبي لحناً مختلفاً، أقسم لك! إنّني لا أرغب في أن أكون سبباً في تعاسة أحد"

للتوّ.. أخذني من ذراعي، أشار إلى صخرة متقدّمة في قمّة الجبل، ثمّ مشى أمامي، كنت أتبعه، كما يتبع الخروف راعيه، كان يوماً دافئاً، كما لو كانت شمسه هاربة من ربيع أو صيف.

بدا الرجل مختلفاً، ما جعلني حريصاً على عدم سؤاله، فلا أبدي دهشتي من تغيّر أحواله، فمن غير عادته، كان مقتصداً في كلامه، بطيء الخطوات، يقف لاهثاً، ويتلفّت متأمّلاً ما حوله من أعشاب وحجارة

وأشجار، كما لو أنّه طفل بريء مندهش من كلّ ما تقع عليه عيناه.

كيف تحوّل الراعي من رجل تخشاه وحوش الغابة، وتخضع لسلطته الكلاّب إلى رجل ضعيف متأمّل متأنٍ، محدودب الظهر، يمشي بحفرٍ كمشية عصفور مهيض الجناح، أسئلة كثيرة دارت بخلدي بينما كنت أتهجّى تعابير وجهه وحركاته، الأمر الذي أبعد النعاس عن عينيّ، أزاح التعب عن مفاصلي، ليغدو همّي الوحيد الاستماع إلى ألحانه الجديدة بعد انقطاع طويل.

تلفّت إليّ راكزاً عصاه في تجويف صخرة طالعة في وسط الطريق، قال: ذات يوم، بينما كنت أنفخ في قصبي، مرّ بي ماني– معلّم القرية– سألني إذا كنت أقرأ النوتة، تحيّرت من سؤاله، غير أنّني أجبته بعد صمت وتفكّرٍ:

"عفواً يا أستاذ! لم أفهم ما تعنيه!"

"أعني الورقة التي يضعها الموسيقي أمامه عند العزف، لو تعلّمت قراءتها، لكنت أكثر مهارة، و لعزفت جميع الألحان بطريقة مختلفة.. طبعاً، هي علامات ليست كالحروف، استطاعت ببساطتها وعفويّتها توحيد عازفي العالم على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم وألوانهم.

حينئذ، صادف أن مررنا ببقعة معشوشبة من الرابية، بزغت في وسطها شجرة وارفة الظلال، يشدو بلبل صغير على أغصانها، لا أجمل شكلاً ، ولا أصدح تغريداً.

"أنا والبلبل، قدرنا ألاّ نكون خلف الجدران، وألاّ نصيخ السمع لأساتذة

تقيّد أصابعهم المفاتيح، والعلامات، وترهقهم السلالم" من ثمّ افترقنا، ولم نجتمع بعد ذلك اللقاء.

ما إن أنهى الراعي حديثه حتّى شرع ينفخ في نايه، ألحان شجيّة خرجت من ثقوبها.. أوجاع الغربة والفرقة والفقد سكنت عقل الراعي وروحه وقلبه، أضرمت نار الأشواق في صدره، أيقظت نائم مواهبه، فرشحت ألحاناً مسكرةً من بين شفتيه، كما يرشح الماء القراح من أصلاب الصخور.

الأبواب والنوافذ والشرفات في القصر الذي بنته ألحان الراعي جاهزة في خيالي لاستقبال أمّي، وشاندرا، والشقراء ذات الضفيرتين، ومن عرفتهم في حياتي من نساء ورجال وأطفال، وما شاهدته في ماضي الأيام من ورد وشجر، وينابيع وشطأن وخلجان. ومخلوقات محتاجة إلى رفق وأمان.

وقتئذ، وددت لو كان بإمكاني وصف تلك اللحظات بقصيدة، لكنّ الألحان التي سمعتها، كانت الأجمل من بين الفنون، فسلّمت لسريرَها جسدي المنهك، ورأسي المتعبة.. غافراً لكلّ من سبب لي أذيّة في يوم من الأيام، كما لو أنّني أودّع الحياة في لحظات اتصال ألحانه الشجيّة بأقطاب وجداني وروحي.

ملازمة الأشباح

ما إن انتبهت من تأمّلي حتّى ظهر الراعي منتصباً أمامي، يرفع بيده مطرة ماء، رمقني بإشفاق قائلاً:

"خُذْ! اغسل وجهك، اشرب واخبرني عن قصّتك مع فلاّحنا، متشوّق لسماع أخباره"

أخذت المطرة، صببت الماء على يديّ، غسلت وجهي، مسحت رأسي، جلست متربّعاً حيث كنت نائماً.

بقربي.. جلس الراعي على حجرة اقتلعها لتوّه من زاوية جدار مجاور لمجلسنا، في حين كنت أشرب ماءً المطرة البارد.

تأخرتُ قليلاً في تلبية رغبته، بينما كنت أفكّر بصمت، سائلاً نفسي هل أنا مضطر لسرد القصّة بكلّ تفاصيلها المملّة، مترجماً له أحاسيس داخليّة راودتني ليلة نبشي لحجارة الجدار، والشروع في فتح الحفرة ، فخلصت إلى قرار يريحني دون ندم، أو تعذيب ضمير، أخلصُ له، مثلما أخلصَ لي في كلّ مرّة تحدّث فيها إليّ، فرحت أروي له متحمّساً وقائع ما جرى لي، وهو يصيخ السمع.

"لما أشار الفلاّح بما يجب عليَّ فعله، للوهلة الأولى.. حسبت أنّه يمازحني غير متوقّعٍ صدور أمر بهذه القسوة من رجل طيّب وبسيط.. نشأت بيننا صداقة طيّبة، واحترام متبادل، لكنّني لم أسمح لأحاسيسي بامتلاك ملامحي وتصرفاتي، أخذت الأمر على محمل الجدّ، كما لو أنّه صادر عن

سلطة رجل غريب عنّي.

تماماً.. كان قد نجح في اختطافي، على أملٍ أن لا بدّ من أنه متراجع بعد رفع القليل من حجارة الجدار الثقيلة.

طبعاً، لم يحصل شيء ممّا توقّعته، للأسف! صديقي.. خيّب ظنّي، غدوت محرجاً.. أسيراً لخجل الاعتذار، وفي الوقت نفسه مندهشاً من جبّارٍ أحالني من رجلٍ حرٍ إلى عبد لمشيئته.

لن أصف لك معاناتي الشديدة من قساوة العمل، أنت أدرى منّي بمشقّة رفع حجارة جدار قديم،. وفتح حفرة ترتفع مقدار قامة رجل، وتتّسع قاعدتها لرجلين سمينين ممدّدين على طولهما الكامل.

لم يحصل يوماً أن شاطرت أهل سدرين دفنهم لموتاهم، غير أنّني كنت أسمعهم يتندّرون بأحاديث كثيرة، منها ما يتعلّق بوصف القبور، وبمراسم دفن الموتى، تجليات، وصور، وأوهام خرجت من لاوعي ذاكرتي، وراحت تفترس حواسي، وأطرافي، في الوقت الذي كان فيه جسدي المنهك، كما لو أنّه شرع بالتشكّل من جديد، معلناً مقاومته لكل تصوّر و هذيان.

كنت كلّما رفعت رأسي متوجّهاً إلى نار تخبو حيناً، وتضطرم حيناً آخر، وضعت هدفي نصب عينيّ.. عازماً ألاّ أتوقف عن عملي، مادامت نار الفلاّح مشتعلة، وما دام لم يأمرني بالتوقّف.

مطلقاً، لم يحصل أن صادفت مجنوناً، ولا أكذب لو بُحت لك:

كانت معرفة أحد المجانين من أغلى أمنياتي، تراني أصدّق ما أسمعه من وصف لطبيعتهم، والحكمة المشهود لهم بها من العامة والخاصّة، لأقول

بجرأة: "هذا ما رأته عيناي، وما سمعته أذناي، وما عاينته بنفسي"

بجديّة بالغة قمت برفع الحجارة من أعلى مدماك في الجدار، ألقيها في عرض الحقل، كي لا تعود ثانية فتتدحرج إلى الحفرة.. طبعا، لم تأت لحظة البدء، التي كنت قد رسمتها عند الشروع بالعمل من إشارة الفلاّح، أو من علم تعلّمته، أو من تجربة اكتسبتها، بل جاءت ردّة فعلٍ، مصدرها خوفي من أن أنتهي إلى حفرة محاطاً بركام، أستغيث فلا أغاث.

ما أرهبني أكثر، وأثار قلقاً في نفسي، أنّني ما رفعت من حجر، وأبعدته عنّي، حتّى تناهى إلى مسمعي صدى صوت اصطدامه بشيء يصادفه في طريقه، كما لو أن أحداً صدّه حتّى هدأ، وللتوّ دحرجه صوب الوادي السحيق.

أمشي منتصباً، أتطلّع جيداً، أستدير، أستطلع الجهات الأربع، لا أرى أحداً، ولا أرى حجراً واحداً من كلّ الحجارة التي قمت برفعها من المداميك الخمسة.

أتحيّر من أمر ما يحصل بجواري، النار يشتدّ أوارها وراء قامات الأشجار اللصيقة بالمكان. تتشكّل ظلال مديدة مشوّهة كالأشباح الموصوفة، لا صوت إلاّ لألسنة نار، ما توقّفت عن ثرثرتها، عازفة موسيقاها، منتظرة شواء تأخّر إنجازه.

أعود ثانية، وثالثة، ورابعة، أسترسل مع هذياني، لا بل مع جنون لازمني، كما لازمت الاشباح سيقان الشجر.

هناك في الوادي من يقوم بتوزيع الحجارة على الخارجين من كهف

سدرين، وقد امتلأت صدورهم منّي غيظاً، واشتعلت عليّ حقداً، أنا الذي أبطأت في البحث عن كهفهم، والالتحاق بهم، ملّوا الانتظار، وسئموا الوعود، هم أنفسهم قادمون، يلقنونني درساً صعباً في البأس والقوّة، بعد ضعف وهزيمة ويأس.. من سرق منهم جانٍ، من كذّب، من غشّ، من داس نملة، وكلّ من شارك في إنتاج قتلة، يتأبّطون سلاح غدر، وفتك، وحرق، وقتل، ودمار.

أين من يسألهم؟ "السماء مقفرة، النيازك مطفأة، الأرض مستحاثة قديمة، لا من أحد يهبط، ولا من أحد يطلع.. لماذا لم أضمّ نساء العالم؟ لماذا لم أراقص الشقراء ذات الضفيرتين؟ لماذا تبقى شاندرا منتظرة انتصاري؟ وإلى متّى يبقى الحلم كابوساً يقضّ مضجع أمّي؟ أيّها المجانين لا تعودوا من جنونكم، غادر الفرسان رقعة الشطرنج، أنا متعب، لستُ من يتعبُ، كلّ حجر سقط في الوادي، لبس قميصه ومضى، للسماء موروث، لا تنكروا على السماءِ مواريثها، تقاليد تكاد تفلت من تقاليدها، القمصان للأجساد، ليست القمصان للأجساد، القمصان للأرواح، من ينضو قميصي عنّي، أُصدقه وعدي.

لم أعد كسابق عهدي

لما رفعت رأسي، أيقنت أنّ ما كان يتساقط فوقها، لم يكن مطراً، فمن أين يأتي المطر، السماء صافية، يفصل بيننا وبين الشتاء ردح طويل من الزمن، على أرض سدرين، تتعاقب الفصول فلا يعتدي فصل على آخر، كم من الاساطيل رست على شواطئها، تترجّل قراصنة ، تتزاحم أحذية، أطماع، فتن، يأتي الموج ليمحو، وبين مدّ وجزر، يعاود كرّته.
ربّت على كتفي، وقال معتذراً: "ما كان ينبغي عليّ أن أدعك هكذا نائماً، لكن ربّما تكون ساعات نومك الطويلة كافية لاسترداد نشاطك."
شكرت الراعي على إنعاشه لي بماء دلقه فوق رأسي، وقلت له: "أخجل من نفسي، بعد الذي حصل لي مع الفلاّح، لم أعد كسابق عهدي، غدوت عبداً للنوم أكثر من أيّ وقت مضى"
"أنت بحاجة ماسّة إلى من يرافقك، طالما تعاني من سيطرة ملك النوم عليك، قد يأتيك وأنت في طريقك إلى البيت، أو عندما تكون متسلّقاً، أو عابراً، حذار! من ظلام سدرين، ومن كائنات لياليها"
"سأحاول ألاّ أخرج في الليل، هذا إذا بقي لي بقيّة من أيام في سدرين" أجبت الراعي.
هزّني من كتفي قائلاً: "اشرب من إبريقي، واستعد نشاطك قبل أن تبدأ في استكمال سرد قصّتك مع الفلاح، مائي لا يخالطه عكر، ولا وساطة بينه وبين السماء، فقد ظلّت بئري المحفورة في صخرة النسور تحتبس الماء

لأكثر من ثلاثين سنة، لحسن حظّك وحظّي، لم يهتدِ إليها أحد، ليس لأنّ المكان عصيّ على الوصول والاكتشاف، بل لأنّهم يتحاشون رؤية النسور المنتحرة، أمّا بالنسبة إليّ فقد كنت أغبط كلّ نسر يحترم شيخوخته، يندفع عالياً، يُحلّق في الأجواء، من ثمّ يسقط غير نادم فوق صخرتي.. الأمر الذي كان يزيدني إصراراً على مواصلة حفري لبئر أسميتها بئر النسور، للمصادفة تفجّرت في قعرها عين ماء، فاستُبدلت التسمية القديمة، لتصبح عين النسر"

"ما الوقت الذي استغرقه فتح البئر. أقصد عين النسر التي ملأت منها إبريقك هذا؟"

"وقتئذٍ كان عمري يناهز العشرين ربيعاً، والآن أنا ابن عقود ثمانية ونيّف، احسب من فضلك.! أو.. لا تحسب! لا يمكنني التذكّر، كنت أعمل ساعة في الصباح، وأخرى في المساء ، أبداً لم أشعل ناراً، أو أستخدم أحداً لتحقيق مآربي"

"تعني.. كنت كصديقي الفلاّح؟!"

"نعم هذا ما أقصده، اشرب، اشرب يا صديقي! واكمل لي سرد القصّة، يجب علينا التسليم بأن لكل امرئ مذهبه في الحياة، ولا مناص من ان يحترم كلّ منّا مذهب الآخر، وإلاّ سيتعب الجميع، فيما ليس فيه خير لأحد" كان سرد قصّتي للراعي أصعب بكثير من معايشتها، لِما كان ينتابني من قشعريرة، ورهبة، وإحساسٍ بضعف الإنسان، وحيرته وشكّه في لحظات ليست كاللحظات!

في معجم الناس

جسدي يخرج من رحم ضعفه إلى رحمة قوّته، متّحداً مع روحه وعقله، مع رغباته وأحلامه، ذاتي متوحّدة أمام ألسنة نار مضطرمة، أحاط بي ضياء باعد ما بيني وبين النجوم، لم تعد للعتمة رهبتها في عينيّ، ولا في عقلي، لم يعد وجه الوقت مكفهرّاً، لكنّ نفسي لم تخلد إلى طمأنينتها.
كنت أريد إثبات مقدرتي في التغلب على جدار مرتفع مكين، وتطويع مساحة من أرض يابسة تحت قاعدة عريضة صلبة، هل كانت الحال التي فُرضت عليّ طقوسُها أقوى من جسدي، وروحي، وعقلي، فأردت التغلّب على مخاوفي مسرعاً إلى قلب صفحات التراب المنسيّة منذ أمد طويل.
الرجل الذي أراد لي ما أنا بصدده، سواء كان غائباً عن عينيّ، أم حاضراً، أكنت راغباً برؤيته، أم لم أكن؟ بالنسبة إليّ، لم يعُد الأمر بذي بال، الحقيقة، كنت كلّما انحدرت قليلاً في الحفرة، شعرت بضعف جاذبية الانقياد.
هل أضيفُ اسم هذا الرجل إلى أسماء من وضعتهم في معجم الناس، الذين يسعدني الهروب منهم، ما عُدت أهتمّ لحضوره، ولا لغيابه، سيّان عندي، قام بتحضير العشاء، أم لم يقم ، يُحضّر لأمسية عامرة، أم لم يكن، قدماي أقوى من قدميه، ساعداي أقوى من ساعديه، أنا أقرب منه إلى الجذور، تلك التي جئت أبحث عنها ، هو لا يختلف كثيراً عن

أمّي ، ولا عن معلّمي ، كان بإمكانه أن يختصر لي مسافة الطريق، ألم يكن أوّل من صادفته في حقول سدرين، وعلى دروبها، كم كان من السهل عليه اصطحابي إلى كهفه، فلا يكلّفني ما كابدته من عناء وغربة وحاجة.. أم اعتبرني تسليته، فألصقني بذاته المتّقدة، ليعيد تشكيلي من جديد.

كلّهم يجتهدون في تصنيع منتجهم الجديد، الذي هو– أنا – الفلاّح الاوّل، الفلاّح الثاني، الصيّاد، حارس الغابة، أمّي، شاندرا، الشيخ، عمّال المقالع، التاجر الجوّال، صاحب معمل الصابون، الحدّاد، النجّار، الشقراء ذات الضفيرتين، المعلّم، الراهب، الحكيم، البنّاء. الراعي، حفّار القبور، الرسّام، النّحات، الشرطيّ، وآخرون...

هي شهواتهم، ليست شهوتي، هي شرورهم، ليس شرّي، هو خيرهم، ليس خيري – أنا – من أنا؟

أمي، وجدت ضالّتها في فطامي، وأنت وجدت ضالتك في قطيعك وكلبك، خذلك من كان بإمكانه أن يجد ضالته في أكثر الأشياء التصاقاً به، ربّما، لكن هناك من يجد ضالته في أكثر الاشياء ابتعاداً عنه، أنا! أمّا أنا فلم أزل ألهث خلف الغبار، والسراب، والوهم، والضياع، لماذا.؟

لا تسألني لماذا كنت عبثيّاً، وكيف لأهل سدرين أن يسعدوا برؤية شاب عبثيّ بين ظهرانيهم.

هل كنت المختار من بين جميع القادمين إلى سدرين كمهرّج، يُضحك، ويُبكي، أو كضائع يبحث عن طريق لا طريق له.

اسمع! هل كان بإمكانك الخروج بقطيع سدرين، لو لم تنتصر لنفسك، أبناء عمومتي يعيشون هناك في قلب الرمال، حيث لا ظلّ يظللّهم، كلٌّ يدّعي أنّه ظلٌّ لظلّه، وأمّي ترغب في أن أظلّلَ ظلالهم، كم هي مخطئة حين اعتقدت أنّ الأشجار الكبيرة تزرع في الصحارى، حيث لا تحيط بها أذرع تُطوّقها، ولا جدران تصدّ عنها الرياح، ولا تربة صالحة لاحتضان الجذور.

ما أتعس اولئك الذين يعيشون تجارب الآخرين، ويزهدون بتجاربهم، كان بإمكانها أن تُحب نفسها أكثر من حبّها لي، لو حصل ذلك، لكان أفضل بكثير من أن تُحبني أكثر من محبّتها لنفسها، ولكان بإمكانك أيضاً، أن تحبّ نفسك أكثر من محبّتك لكلبك والقطيع.

في ذلك اليوم، الذي لا يشبه إلاّ نفسه، أقلعت عن الطيران، لإدراكي أن الرياح القويّة تقتلع الشجر، ولا تدع البذور مطمئنة، أشرقت روحي من عتمة غيابي، حَملَت مقصّاً، راحت تقصّ به الريش عن جناحي المتعبين، وترميه أرضَ حفرة تتّسع، و تنحدر، لتغدو أكثر عمقاً، وأشدّ عتمة.

صوتٌ في داخلي يقول:

"دجاجة لا تقيت نفسها من تحت رجليها، ليست دجاجة!"

صوتُ ذاتي القلقة، يدعوني إلى الوقوف على قدمين ثابتتين، يقول لي: "أنت تنحدر، حيث لا يراك الفلاّح، ولا يصل إلى موضع قدميك ضوء، هناك بإمكانك أن تراقب نفسك، وتستهدي بنور ذاتك المتّقدة.

قمّة جبل شان شامخة، لكنّ عزيمتك موضع استهزاء هذه القمّة، كنتَ

مطمئنّاً للوديان العميقة، وللسهول المنبسطة، وكنت تهزأ بالقمم، لا لأنّها محلٌ للسخرية، بل لأنّك غير قادر على إدارة رقبتك، وإبراز صدرك، ورفع رأسك، وترويض عينيك.

الكهوف هي الكهوف، والقمم هي القمم ..كلّ ما عرفته عنها في ماضي أيامك، وما ستقرأه في تاليها، لا يعادل ساعات تقفها فوق جبل شان في مواجهة الريح، والمطر، والصقيع.

لا تقُل لي إنّ القمم مختلفة من حيث الفجاجة والنضوج، أقُل لك مهما اختلفت الكهوف عن بعضها من حيث العمق، والاتّساع، والدفء، والرطوبة، فهي تُدعى كهوفاً، وهذا ما ينطبق نفسه على القمم.

كان يجب أن تسأل أهل سدرين عن أعلى قمّة بين قممهم، قبل أن تسألهم عن كهفهم، فتغدو كالذين عبروا قبلك، والذين سيعبرون بعدك، قرأوا على أذنيك، أنّ كلّ من أقام ردحاً من الزمن في كهف، خرج منه شجاعاً، حكيماً، مبدعاً ومعافى، لو كان ما ادّعوه صحيحاً لكانت الثعالب والأرانب والسحالي أولى بهذه الصفات، ولكانت تماثلها مخلوقات أخرى.

أنت مؤمن بأن الظلام، والرطوبة، والانغلاق شروطٌ قاصرة، لا تعطي سوى الضعف، والوهن، والعفن، والجوع لالتهام الآخر، لكنّك مصر على أن تمضي في طريقك، أن تكتب سيرتك بأصابعك، ربّما هذا ما كنتَ تصبو إليه، واستطاع صديقك الفلاّح قراءته على جبينك، ألم تقل له عند لقائكما الأول إنّك تعرف الجهات!

ليس المهم أن يعرف المرء الجهات، بل المهم ان يعرف كيف يخرج إلى الجهات، كيف يواجه كيد الجهات، حقدها، غدرها، شراستها، افتراسها، دناءتها، وكيف ينتزع عن وجوه شخوصها الاقنعة.
تنحدر إلى جهة تحتاجك، تماماً كما تحتاجك الآن أمّك، كما هم أهل سدرين بحاجة إليك، وإلاّ كيف لا يُقدّر لسواك من زوّار سدرين المكوث فوق أرضها، ألم يأتوا جميعاً باحثين عن كهفهم الموعود، سواء هم اختفوا، رحلوا، ماتوا! أم بقوا أحياء!
لولا إيمان حفّاري القبور بأنّ موتاهم سينهضون من جديد، لما واروهم الثرى، لولا إيمان المزارع بأن غراسه وبذاره تنموا وتجزل العطاء، لما بذر بذاره، أو غرس غرسه، أيّ هدف تسعى إلى تحقيقه، وما مدى إيمانك بمقدرتك على الوصول، يسالك صوتك، تسأل نفسك!"
أواصل سرد قصّتي للراعي، وهو في اشد التوق لمعرفة ما حصل لي في ليلة ليلاء، لا تشبه إلاّ نفسها، مع فلاّح أضرم لي النار، أعطاني معولاً ورقشاً، ومن ثمّ انصرف.

ومن ثمّ انصرف

أدركت في تلك الليلة أنّ ما قرأته في كتب معلّمي، وما سمعته من عظاته، لم يكن سوى تراكم معرفي يُثقل الرأس، ويُرهق الأعصاب، أفكارٌ راودتني، وأنا في زحمة انشغالي، حينها.. تذكّرت لحظة أعطاني الفلاّح معولاً ورفشاً، لم أصدّق أنّ هاتين الأداتين الصدئتين قادرتان على القيام بوظيفتهما على أكمل وجه، لكن ما إن انتهيت من رفع حجارة الجدار، وشرعت أقلب التراب، وأرفشه.. حتى بدت الأداتان مصقولتين، فكأنهما رفعتا للتوّ من تحت مطرقة الحداد ومجلخه، تملّكني خوف من العتمة، فكما تراكمت تعاليم معلّمي في خلايا طمأنينة عقلي، وسلام ضميري، غلّفت مخاوف أمّي أعصابي ومفاصلي.. إذ لطالما حذّرتني من الخروج إليها، أو من ممارسة أيّ عمل فيها، مهما عظُمَ شأنه، أو قَلّ.

الليلة – أنا – في حلٍ من مخاوف ورثتُها، من أسفار قرأتها، من مواعظ وحكم حفظتها، جاء الوقت الذي يُخرجك يا شامان من جلدك، يُغريك برؤية نفسك على حقيقتها، بعيداً عنهم عن كلّ من عرفتهم، ومن عرفوك، هي الساعات التي تجعلك مَلكاً لها، فلا يشاركك أحد في سماع دقّات عقاربها.

تبدّد الظلام، لمع نصل المعول على مرآة بصري، استدرت قليلاً لأرى ما الذي يحدث، ما سرّ انقشاع الظلام المفاجئ، لم أر أحداً في المكان، لم أسمع صوت أحد، ما رأيته ليس سوى جمرات نار وألسنة.. خرجت

تلاحقني، ومن ثمّ تتوقّف على بُعد أمتار قليلة من موطئ قدميّ.

لو كنت خارجاً لتوّي من كهف، لكنت على يقين أن النار تتبعني، كما آمن معلّمي، أمّا والحال جارية على عكس ما سمعته منه.. فالجمرات والألسنة تلاحقني، يا لضياع الاستماع!

مرّت سنوات مراهقتي دون حصولي على قبلة من فتاة، كنت واهماً، مسكوناً بفكرة – ابحث عن أنثى.. اتبعها! – الليلة، اقتنعت بأن كلّ أنثى تتبع الرجل، لكن.. عندما يدير لها ظهره، كنت أقول في نفسي در ظهرك يا شامان، ولا تعبأ بالنار! حتّى لو تدحرجت جمراتها بين قدميك، النار أنثى يا شامان، هي ذي تتبعك.

لكن حذار الصقيع! هذا المذكّر الحاقد، يكمش فمك فيمنعك من الغناء، ويُطبق على أوصالك فيمنعك من الرقص، ويُثبّت جناحيك، ليمنعك من الطيران.

قُل لي بربك.. هل من معنى لحياة مع حجر، أو لمكوث طويل في ركن بارد.. جذع الشجرة اليابس يقول لك:

"احرقني قبل أن ينخر الدود جوفي!"

إنّ صوت اللهب الخارج من بين عيدان الحطب المشتعلة، ليس سوى غناء، وأيّ غناء!

إن مُلحّناً موهوباً باستطاعته كتابة نوتة لـ (كورس) ألسنة نار، ومن ثمَّ أداء أنشودته فوق جمرات موقد مضطرم، أضعتَ سنوات طويلة في السؤال، لكنّك قليلاً ما كنت تسأل نفسك، علّمك رفع حجارة جدار

متهالك أن تسأل نفسك ألف مرّة قبل ان تسأل أحداً مرّة واحدة.

هل سألت نقسك كم مررت بكهف، وأنت في طريقك إلى سدرين، هل سألت نفسك كم عدد من قدّم لك منهم كأسه المترعة، وإذا استطعت أن تحصي عدد الآلهة الذين قدموا لك كؤوسهم المترعة، هل تستطيع أن تخبرني عن ماهيّة ما امتلأت بها تلك الكؤوس.

شاندرا! أين أنتِ الآن؟ أين أنتنّ يا نساء سدرين، والعالم كلّه؟ اليوم أصبحت مختلفاً، كلّ ضربة معول تزيدني اقتراباً منكن، كلّ حبّة عرق تسقط فوق تراب الحفرة، تحملني إلى كهف سدرين.

كان أحرى بي سؤال نساء سدرين عن كهف جئت إليه باحثاً، كلّ من سألتهم كانوا رجالاً، هي غلطتي.. ربّما لم تكن الأولى، ولن تكون الاخيرة، في أقسى ساعات عملي، كنت أشعر بحاجتي إلى الأنثى أكثر من أيّ وقت مضى، ربّما كان ضعفي سبباً من أسباب نفور نساء سدرين منّي، نساء سدرين لا يحببن إلاّ رجالاً اقوياء بإمكانهم قلب وجه الارض، وشقّ الانفاق، وممارسة الرقص، وصناعة الفرح.

ما اتعسني وقد عشت في سدرين شهوراً من الكسل والترهل، منتظرا من أحدهم اصطحابي إلى الكهف الموعود.. وأنا الرجل الساذج في حيرة من أمري، أهو وقتهم المشتعل بالعمل منعهم من تلبية طلبي، أم هي رغبتهم في أن يجعلوا زائريهم يكتشفون الكهف بأنفسهم.

صديقي الراعي، لا تقل لي شيئاً، ولا تمنعني من قول شيء، فقد خرجت بقناعة أنّ من يرغب بدخول كهوف الآخرين، وتحرّيها، ينبغي أن يفتّش

مسبقاً كهفه.. فهل كان صديقنا الفلاّح مدركاً مدى حاجتي إلى فهم نفسي.

أمس، حلمت أنّني تحوّلت إلى فراشة، كغصن حور يراقصه النسيم، غرّدت كبلبل عاشق، لكنّني كنت ضعيفاً، أرتجف كوردة خجولة تحت صفعات الريح، ووابل المطر.

أرفع قبضة من تراب، أفركها بين كفيّ، أجلس برهة كي استريح، أشتمّ رائحتها، اشتقت إلى رائحة الخبز والزيت، وددت لو تنقلب حبّات التراب إلى حبّات ملح وسكر، والحصى الصغيرة إلى حبّات فول وحمّص وعدس.

حضرني قولك ذات يوم – لا تخرج إلى الغابة دون زاد.. هواء الغابة يا شامان أكبر محرّض للشهيّة – في تلك الليلة، بلغ التعب منّي أقصاه، شعرت بجوع وعطش شديدين، لم أستطع الوقوف على قدميّ إلا بكثير من العناء، متكئاً على الرفش، الذي لازمني طوال فترة جلوسي.

استدرت محنيّ الظهر، مشيت خطوات قليلة إلى الوراء، أقلّب ناظريّ في الأمكنة، باحثاً عن إبريق ماء، لم أجده.. الأمر الذي حيّرني، ودفع بي إلى الخروج من حفرتي بعد أن رميت الرفش إلى جانب المعول. لو كنتَ في مكاني لدُهشتَ ممّا حدث، وشكّكت، ودخل إلى نفسك الريب، فوقعت صريع مخاوفك!

لكنّ صورة أميّ، وشاندرا، والشقراء ذات الضفيرتين، وإيماني بما قدِمت من أجله، كلّ هذا حال دون وقوعي صريع دهشتي من نار انسحبت

من بين قدميّ، لتتوّج هامة الجبل المقابل للمكان، ومن خيمة أرجوانيّة أيضاً، كانت قد نُصبت عند المنحدر المجاور للحفرة، بجانبها قطّة تموء، وديك يصيح، وثلاث دجاجات حمراء، ربّما كانت الفرحة أسبق من الدهشة في دفعي لاكتشاف ما يحدث خلفي، وعلى يميني ويساري.

دون وجل، اندفعت سريعاً إلى داخل الخيمة، واثقاً من أنّ صديقي الفلاّح، بصمته المعهود ورصانته، يقوم بإعداد الطعام داخل الخيمة.. لكنّ مصباح الزيت المعلّق بمسمار طويل دُقّ في واحد من أعمدة الخيمة، لم يترك لي أملاً في إيقاع المفاجأة.

كان داخل الخيمة خالياً من الإنس، وليس من شيء يشير إلى ترتيب لأيٍ كان سوى وجود طبق من قشٍّ، يحتضن طبقاً آخر مقلوباً، كانا قد وُضعا، تماماً تحت المصباح.

كان كلّ شيء واضحاً تحت سقف الخيمة، الدجاجات الثلاث، نائمات في الخارج، والديك أيضاً، أمّا القطّة فقد تبعتني مطمئنة، كما لو أنّها تعرفني من قبل.

عدت أدراجي مذعوراً، بينما عيناي ما برحتا تحدّقان في الطبقين، في الوقت الذي كانت الأسئلة تضجّ في صدري حولَ.. ما المخبوء؟! ثمّ ما سرّ رفع هذه الخيمة، من له مصلحة في إخراج هذه المسرحيّة، ما شأن الدجاجات الثلاث، وديكهم، ما سبب وجود القطة الأليفة؟!

نظرت في ما حولي، ومن ثمّ عدت أنظر إلى نفسي متسائلاً:

"إذا لم يكن بإمكاني الإجابة على تساؤلاتي، فكيف بإمكاني سبر أغوار

نفسي، وأغوار نفس الآخر. شامان القادم من وسط الصحراء، ليكون أوّل فاتح لكهف سدرين، الآن.. هو عاجز عن معرفة المخبوء تحت طبق من قش، على الرغم من أنّ السراج المنير ليس بعيداً أكثر من مترين عن الطبقين.

فجأة قفزت إلى ذهني قصّة البائع الجوّال مع السيّدة، التي توقّعتُ للتوّ حضورها، بينما كنت أُصيخ السمع لكلّ صوت، وأراقب كلّ حركة جديدة تجري على مسرح المكان.

لا تهزأ بالحياة .!

ألقيت نظرة أخيرة على المكان، كلّ ما فيه من دفء وشبهات يشدّني بقوّة إلى نقاهة أحتاجها، قطعت الطريق على كلّ تساؤل يمكنه التجوال في خاطري ومراودة نفسي، فتوّة عقلي تستعيد مكانتها في رأسي الموجوعة، تتسلّم زمام الأمر، تبعث في جسدي قوّة.. لا أحسبها صادرة إلّا عن عزم وخَفَر، أجدُني.. أستدير زاهداً بكلّ ما يمكن أن توفّره لي اللحظة المنتظرة من مفاجآت.

انسحبت من داخل الخيمة، أقفز فوق جدران الحقول مختصراً مسافة الطريق إلى القرية، أنوار مصابيحها تبزغ من رئة العتمة المحيطة بأحيائها الوادعة.

ما إن ابتعدتُ قليلاً حتّى عدت ألقي الملامة على نفسي الحائرة، يجلدني ضميري بسياط عاتبة، يسأل:

"لماذا سمحت لنفسك بمغادرة المكان في غياب رجل أكرمك يوماً، كان جديراً بك الانضباط والإخلاص لمهمّة أسندت إليك؟"

"أتريد منّي البقاء وحيداً كفريسة سهلة لوحوش الغابة، ألاّ تكفي حراستي للغابة في النهار من الحطابين، وصيّادي الطيور النادرة؟"

"لماذا شككتَ بالرجل، ولم تحسن الظنّ به، ألاّ يصحّ القول في أنّ ما فعله ليس سوى امتحان لشاب جريء، يبرهن من خلاله عن شجاعته في مواجهة الآتي"

"أيُّ آتٍ تقصد.. يا ضميري؟"

ضحك الضمير منّي ساخراً، ما أثار السخط في نفسي، وأجابني غاضباً:

"يبدو لي أنّ نسائم سدرين العليلة، وفتياتها الجميلات أنستك ما جئت من أجله، أكنت راغباً في البقاء عالة على أهل سدرين، وأنت ابن الصحراء التي لا يفصلها عن السماء سوى السماء"

"مطلقاً! لم أنس ما جئت من أجله، ألا تراني كلّ يوم في بحث وسؤال عن كهفها الموعود، معاهداً أمّي وشاندرا.. ألاّ أعود قبل نجاحي في اكتشافه، وحملي قبضة من ترابه، أرشّها فوق صحرائي الغالية، ها انا أعدّ العدّة، أشتغل في معمل الصابون بأجرٍ يسدّ مصاريفي، في الوقت الذي لا أتأخّر فيه عن حراسة الغابة مسدّداً ما لسدرين في ذمّتي من ديون"

"عظيم!، عظيم ما تفوّهتَ به! لكنّك أفسدت كلّ شيء، ورسبت في الامتحان"

"لا تقُل ذلك! أنا لم أخيّب ظنّ أحد بي"

"تتملّص من أداء واجبك تجاه سدرين، التي أطعمتك، وسقتك، وآوتك"

"أيّ واجب تملّصتُ منه بعد الذي فعلته من أجلها"

"الواجب الأكبر يا هيكلي!"

"أفصح لي عن مكنون ما تقصد يا ضميري"

"ألاّ تكون جباناً، وتهزأ بالحياة"

"أتراني زاهداً، أو هازئاً بالحياة؟"

"طبعاً، حينما تسرّب الضعف إلى قلبك، والتوت مفاصلك، فرميت

المعول من يدك، وفررت هارباً"

"تتّهمني!"

"بدوتَ جباناً، ضعيفاً، ظالماً نفسك"

"ما الذي كان ينبغي عليّ فعله"

لم أسمع من قبل قهقهة ضميري، لا أرغب في الاستماع إليها، اسمع صديقي الراعي! أُصدقك القول، ليس من أمر أصعب على المرء من استهزاء ضميره به، هذا ما حصل لي مع ضمير يقهقه حتّى خلتُ جميع أهل سدرين يسمعون قهقهته.

ابتعد الراعي عن جدار حقل الذرة الصفراء، كان قد استند إليه، بينما كان يستمع إلى قصّتي، وسألني مندهشاً:

"ما سرّ استهزائه بك؟!"

"سؤال طرحته عليه"

"بماذا أجابك؟"

"توقّعت صدور كلّ شيء عن لحمك ودمك وعظمك، مثل التعب، والجوع، والظمأ.. ولم أتوقع أن يصدر الجزع عن روحك"

"أيّ جزع تعنيه؟"

"مجرد سؤالك لي"

"أيّ سؤال تقصده؟"

"سؤالك لي، ماذا ينبغي عليّ فعله"

"طبعاً، أعود، فأكرّر السؤال"

"هذا ما يدعوني إلى نعتك بالجبن، والضعف، والهروب، أسوأ ما في المرء سؤاله عن واجباته نحو الحياة"

قاطعني الراعي قائلاً:

"كان صوت ضميرك قويّاً، وتأنيبه لك شديداً، ما الذي دار في خلدك حتّى بدر منك ما بدر، فكنتَ سعيداً بجهدك وعرقك، وأنت ترفع حجارة الجدار، مثلما كنتُ سعيداً بالتنقّل مع أغنامي من مرعى إلى آخر، ومن غدير إلى غدير"

"لا أخفيك سرّاً، وأنت من بُحت له يوماً، وباح يوماً لي، أنّني شممت رائحة الموت"

"ما هذا الهراء يا صديقي، أ للموت رائحة؟! سنين طويلة، وانا أسرح بأغنامي، كان يصادف أن أطوف بها بين مقابر القرى، لم أشتمّ يوماً للموت رائحة، ولم يحدث أن أخبرني أحد بما تخبرني به"

"هل جرّبت الانزلاق إلى الأعماق"

"طبعاً، لم أجرب، أنت تعلم أن الأعشاب، لا تنمو إلاّ برعاية الضوء، فلا أجد ضرورة للانزلاق إلى المغاور حيث الرطوبة، والعفن، والظلمة، لكنّ هذا لم يمنعني في أوقات القيلولة، من أن أتفيّأ، وأقيل أغنامي تحت ظلال الأشجار، وعند أبواب المغاور إن وجدت"

" لم أقل لك إنّني خشيت الموت، ما خشيته وقتئذ ليس سوى المكيدة"

" أيّة مكيدة يا رجل؟" سألني الراعي.

"مكيدة ما كان في داخل الصندوق، وما كان ينتظر تحت الطبق"

لم تمتدح أحداً

وقتئذٍ، كنت حريصاً أشدّ الحرص على أن أسرد لصديقي الراعي أحداث تلك الليلة الليلاء دون زيادة أو نقصان، وأبوح له بمكنونات نفسي، في حين كان الرجل حريصاً على سماع كلّ كلمة أتفوّه بها.

بُحت له بما اعتراني من خوف، لما اصطدم رأس المعول بجسم غريب، أقرب ما يكون إلى الخشب، ضربت أخماسي بأسداسي، معتقداً أنّ الرجل نصب لي فخّاً، أو أنّه دبّر لي مكيدة، قلت في داخلي: " اصعدْ من الحفرة بحجة الظمأ، يا رجل!"

قبضت على أعصابي، وتمالكت نفسي من جديد، متوهّماً.. أنّ ما يواجه معولي ليس سوى جذع شجرة قديمة.. بُترت ساقها.. أروح، أجيء بين إقدام، وإحجام، إلى أن حزمت أمري على متابعة العمل محاولاً الابتعاد ما أمكن عن سطح الجسم الغريب، حتّى داهمني العطش والجوع. وأنا بين مصدّق ومكذّب.

كلّما انتقلتُ من فكرة إلى فكرة، كان الراعي يقوم ويجلس، يستند إلى جدار الحقل، وينتصب، ومن ثمّ يضرب الارض برأس عكّازه المدبّب، حتّى خلته ينقضّ عليّ، فيشجّ رأسي بحجر، على الرغم من أنّه كان بوقارٍ وتفكّرٍ منشدّاً إلى حديثي كصخرة شاطئ، تصيخ السمع لأمواج بحر.

كنت أرغب أن يقول شيئاً، حتّى إنّه اقتصد في تعابير وجهه، فما كدتُ

أفهم منه قبولاً لما كنت أبوح به، أو رفضاً، الحقيقة أنّ الراعي استفزّ أعصابي، ما دعاني إلى المغالاة في رفع صوتي، قائلاً:

"تصوّر، يا رجل! ألم يكن من الافضل له، ولي.. أن تنكشف طبيعة النوايا من الساعات الأولى للقائنا، أمّا أن يدبّر لي المكائد، فهذا.. أبداً، ليس من شيم رجال سدرين.

ربّما كان الراعي يحدّث نفسه، قبل أن يقول شيئاً لشامان: " في المجالس كنت أسمعهم يقولون:

"يمرُّ الباحثون عن كهف سدرين كأنّهم أبداً لا يعودون"

قل لي يا (أنا) ما سرّ هذا الكهف، الذي يبتلع زائريه، أيّ جوع جوّعوه، إلى أيّ حدّ هو متعطش لدماء الأبرياء، هل هذه الأقاويل كذبة، لبست عباءة صدق.

كنتَ الوحيدَ بينهم، ولم تزل ذلك الكائن الذي يطمئن إليه قلبي، لا لأنّك لست منهم، بل لأنّك الأبعد عن لامبالاتهم، عن طيشهم، عن كِبرهم، وتفاخرهم، وضجيجهم.. لكنّك شاركتهم التورية، فحلّلت معهم سرقة وقتي، عالماً كنتَ، أم جاهلاً.

أعرف أنّك لم تمتدح أحداً، ولم تتمسّح لأحد، ولم تحتقر أحداً، هكذا عشت عمرك، لم تطنّ مع الذباب، ولم تمتصّ الدماء كالبعوض والبراغيث، لذلك عَظُمَت حكمتك، لما طالَ استماعك، وقلّ كلامك.

ماذا لو أسميتك (عبد العزلة) وأسميت نفسي (عبد الضجيج) تَفْهَمني تماماً، أنت أقوى من أن تضعف، وأكبر من أن تصغر، أنت لا يدعوك

داع إلى الشكّ، والظنّ، والتخمين، والقلق، والخوف، بل يدعوك.! طبعاً، لأنّـك لســتَ بـالموقن بكهـف يمـنح القـوّة، والاطمئنـان، والشـجاعة، والحكمــة، والشــفاء، تُــدرك تمامــاً أنّ الشــفاء والحكمــة والشــجاعة والاطمئنـان والعزيمة والإرادة والقـوّة، لا تنبع إلاّ مـن داخلـك، وليس مـن أصمّ الحجر، وأحلك الظلام.

لكنّك أكلت من الشواء

"أنت بحاجة إلى عينيك، تتوجّع وتحزن لو فقدت منهما واحدة، ويحصل مثل ذلك وأكثر لو بُترت واحدة من ساقيك، كلّ الطيور التي ذبحتها تقف بعد ذبحها" وأردفت قائلة:

"لست رجلاً، سكينك غير قادرة على ذبح دجاجة!"

"لا تشغلي بالك بسكّيني، سيمرّ عابر سبيل تكون سكينه قادرة على ذبح نذرك"

"لكنّك ذبحت الدجاجات فوق الجبل، وأخرجت الدنّ من الحفرة، وشربتم خمرة – الوصيّة – واطّلعتم على الورقة الصفراء"

"هو من قام بذبح الدجاجات، ليس أنا!"

"لكنّك أكلت من الشواء، وشربت الخمر"

"ماذا كان عليّ أن أفعله بعد الذي حدث؟!"

"أن تعيد الخمر إلى أصله، وتبعث الحياة في الدجاجات المذبوحة"

"إن لم نأكل الدجاج، سيكون من نصيب الثعالب، وإن لم تشرب الخمر سيرشح من دنّه"

"دنّ الخمر نذر الجدّ لفرح حفيديه، والدجاجات نذر الجدّة"

"أبداً لن يُبعثوا من جديد، إنّك تهذين!"

"قُل جُننتِ!"

"معاذ الله أن تسمعيها من فمي.. لكنّه الموت!"

"أهذا ما عرفته من حكماء سدرين؟"

"طبعاً لا، هذا ما قرأته في الكتب، تعرفين!"

"لو عرفتُ أين تكمن الحقيقة، لأعدت المكان إلى مكانه بساقي المبتورة، وأعدت ماء النهر إلى ينابيعه بعيني المطفأة "

"ألستِ من القانطين؟"

" دعنا من هذا الهراء، ماذا جرى لجوهرتك الثمينة، ومنديلك الجميل؟"

"جوهرتي، ذابت بماء النهر، ومنديلي صار غيمة"

"وحدهم الشعراء من يتجرّؤون على قول هذا!"

"أهٍ من الشعراء! هم من جاؤوا بي إلى جبل شان"

"هل كان لهم أثر في الورقة الصفراء؟"

"ليس لغيرهم أيّ أثر"

"وماذا فهمت من طلاسمها؟"

"النصف الذي لم يفهمه عالم الأثار النمساوي، ولم يستطع علماء اللغات القديمة ترجمته"

"هل أنت على دراية بما فهمه عالم الأثار النمساوي ؟"

"كان من المفروض أن توجّهي سؤالك هذا إلى أمّي، فهي من سمعت"

هزيمتك أمام العبارات الحاضرة

سيلتقي بها غداً، كان بودّه لو يحمل إليها خبراً ساراً أو خبرين، كلّ من التقاهم، واتّصل بهم من الأطباء أكّد له أن لا سبيل إلى استرداد ما فُقِد.. لن تقف السيّدة على ساقين، ولن ترى بغير عين واحدة.

لن تجد بعد اليوم ما يشغلها عن الاستماع إلى روايته، ومتابعة فصولها حدثاً إثر حدث، ستسأله عن مصير البائع الجوّال، و أنجولي – المرأة التي وعدته بتحويل خرزات السلّة إلى جواهر– وعن مصير الهرّ والثعبان، ومن منهما سيفوز في النهاية.

لن تقبل أبداً ببقاء شامان بعيداً عن أمّه وشاندرا، حفظ الكثير من الحكم والأشعار، تجمّل بالصبر والحلم، واكتسب عادات تؤهّله ليكون سيّد قومه.

من حقّها أن تسأله، وعليه أن يجيبها على الأسئلة، وإلاّ لماذا أقْحَمَ نفسه في حياتها؟ جميلٌ أن يكون المرء مبادراً، لكن الأجمل أن تكون لديه إرادة الاستمرار إلى أن تأتي مبادرته أُكُلَها .. امرأة بساق واحدة وعين، هل تصدّق أنّ شامان عثر على كهف سدرين، أو أنّ البائع الجوّال أغلق أبواب كهوف جبل شان ليعود إلى تجارته، لا جواب إلاّ عندها.

يقول له الطبيب: "يخشى عليها من بتر الساق الأخرى، ومن سرعة تأثير السكّري على العين الصحيحة"

هو على يقين من أن المرأة اعتادت على حضوره اليومي، كان صديقاً

لولـديها اللـذين قضـيا في الحـرب الـدائرة، وخطيبـاً لابنتهـا الوحيـدة المختطفـة، فـلا شـيء يعفيـه مـن حمـل السيّدة إلى عـالم آخـر، حيـث لا مدية، لا رصاص، لا انتقام.. بذل جهداً كبيراً كي يعيق زحف الداء إلى أطرافها، ولكي يشغلها عن أحزانها وأوجاعها، شرع في خلق شخصيّات وأحداث وأمكنة.. لم يكن على معرفة بالأجناس الأدبيّة، ولم يقرأ رواية في حياتـه، كلّمـا أوغـل في السـرد، في عينيـه.. تزاحمـت مشـاهد ليسـت مسبقة الصنع، ولم تنضج في خيال أحد سواه.. ربّما اقتُطعت من فصول روايةٍ كُتبـت في عـالم آخـر، أو أنّ مجنونـه كـان قـد طرّزهـا بالهـذيان، فمـا الضرورة لمعرفة الجهات، و ما الفائدة من معرفة جدول الضرب، والمعادلة من الدرجة الأولى، والشخص الذي أمر ببناء الأهرامات، ومتى رفع برج (إيفل) وكم احتاج سور الصين من عمال وحجارة لإنجازه.. في الوقت الذي يكون قميصك عبئاً عليك، يكون اسم وخانة ومولد امرئ أخر أعبـاء ثقيلة عليه، لا تبكِ كالصغار، أنـت لا تـأتي بشـيء جديد، اطعـم نذورك لأطفال سدرين، احمل لأرامل جبل شان الغبطة المشتهاة، انشر أغانيك على شرفات منازلهم، ارقص في ساحاتهم، واجعل من ينابيعهم مهرجانات يقين وأمل، أنت عائد من لقائك البائع الجوّال، كان مرآتك، وكنـت مرآتـه، كـلّ واحـد منكمـا يفهـم مـا لا يفهمـه الآخـر، لكـنّ أحـداً منكمـا لا يعـترف.. الطريـق بعيـدة جـدّاً إلى كهـف سـدرين، تمـرّ بأفيـاء السنديانة.. عند جذعها تجلس امرأة بساق واحدة وعين.. تساعدها في النهوض والجلوس فتاة شقراء بجديلتين.. لـن تستمرّ طويلاً في خدمتها

لها، ما دام في الأحشاء ما يوحي بسرعة البزوغ.. حياتك لا تُنقص شيئاً من تراب سدرين، موتك لا يزيد شيئاً في ترابها، أن تعلم ما لم تعلمه، أن تتجاهل ما تعرفه، سيّان عند أحدهم هبّت الرياح الشرقيّة، أم لم تهبّ، هذا لا يعني أن الرياح الغربيّة ستتوقّف.. شمال.. جنوب.. أعلى.. أسفل.. لا مفرَّ من السقوط، سقوطك وحدك ليس قدراً، الجاذبيّة، الملوحة، الحموضة، الحلاوة، الأبيض، الأحمر، الأزرق، البرتقالي، أديسون، نوبل، موتسارت، بتهوفن، باخ، جلجامش، المهابهاراتا، الإلياذة، الأوديسة، هوميروس، الإسكندر، جوليا دومنا، زنوبيا، زرادشت، بوذا، كريشنا، أحمد، عيسى، إبراهيم، الصلاة، السلام، المحبّة، العنف، الغدر، الإرهاب.

ثمّ ماذا تريد أن تقول؟ لن تقول أكثر ممّا قالوا، ولن يُنقصوا شيئاً ممّا قلته، لا تتعب نفسك في ما ينبغي، وما لا ينبغي، أحببتَ الأطفال والنساء، السماء مؤنّث، الأرض أيضاً.. وحدها الرياح تجعل الطير ينهض من تحت الرماد، عين واحدة لا تكفي للبكاء على سدرين.. استرجع جوهرتك!

اجعلها مكان عينها المفقودة! ليس سواها من يستمطر الدموع من منديلك الأزرق السماوي، وأنت أيّها الراعي! خذها بأريحيّة، قدّم لها عصاك.. كي تقف مرّة واحدة على اثنتين، لتبارك لك انتصارك على العبارات المفقودة في الورقة الصفراء، أو لتنسيك هزيمتك أمام العبارات الحاضرة!

2016 - 2009

الفهرس